

ميرنا المهدي

قضية ذيل القط

رواية

تحقيقات نوح الألفي

قضية ذيل القط

تحقيقـات نوح الألفي

روايات ميرنا المهدي

الصادرة عن دار الكرمة

قنبلة للاستخدام الشخصي

دليل جدتي لقتل الأوغاد

صديقي السيكوباتي

جاز ورك - قائمة أغاني السفاح المثالي

قضية ست الحسن - تحقيقات نوح الألفي ١

قضية لُوز مُر - تحقيقات نوح الألفي ٢

قضية عنب الثعلب - تحقيقات نوح الألفي ٣

قضية ذيل القط - تحقيقات نوح الألفي ٤

ميرنا المهدي

قضية ذيل القط

رواية

تحقيقات نوح الألفي





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

المهدي، ميرنا.
قضية ذيل القط (تحقيقات نوح الألفي - ٤): رواية / ميرنا المهدي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.
٣٠٤ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789779603452
١- القصص العربية.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣٦٤٦ / ٢٠٢٥

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

إهداء

إلى أمي التي قرأت المسودة الأولى من هذا العمل، وعرفت القاتل من أول عشرين صفحة فاضطررت إلى إعادة تأليف العمل وجعله أكثر تعقيدًا.

وإلى «قطاقيطو»، قطة شارعنا التي قررت ذات صباح أن تداعب رباط حذائي وتصادقني، وحين عطفتُ عليها بالحليب والطعام عطفت عليَّ بمحبتها وباستقبالي كل صباح أمام باب عمارتي لتؤنسني في طريقي إلى باب السيارة. شكرًا «قطاقيطو»، لولاكِ لبقيت أخاف القطط إلى آخر عمري.

تمهيد

لعلك تعرفني من قبل، وإن كان هذا تعارفنا الأول، فدعني أقدِّم إليك نفسي في ثلاث نقاط:

- أُدعى نوح الألفي.
- أنا ضابط في المباحث الجنائية في منطقة قصر النيل.
- أنا أرى أرواح الموتى!

مكتبة ضاد

١

أخبرني صلاح أنه يستجوب «قطة» شهدت على جريمة قتل جماعي في كول سنتر داخل عمارة سيف الدين!

تحججتُ بمكالمته العبثية لأنسحب من أمسيتنا العائلية التي أخذت منعطفًا لم أكن مستعدًّا له نفسيًّا. نهضتُ عن مقعدي أشير إلى طارق أن يبعد ساقيه الطويلتين أكثر من اللازم كي أعبر المسافة بين الأريكة وطاولة غرفة المعيشة من دون أن أدعس قدميه، فنفَّذ طلبي بينما أقول لصلاح بشهامة مصطنعة:

- اعمل حسابي في جهاز لاسلكي، أنا مسافة الطريق وأبقى عندك. طُز في أجازتي. مش هسيبك في الكارثة دي لوحدك!

مهد لي أدائي المبالغ فيه طريق الهروب من فظاظة شقيقتي نادية، وفضول جدتي إحسان. مررت من أمامهما متقمصًا

شخصية المحقق المنهمك في سماع تفاصيل الجريمة، فأطرح على صلاح أسئلة تافهة لا غرض منها سوى حَبك انشغالي بالمكالمة، حتى خرجتُ بسلاسة من غرفة المعيشة من دون أن يوجه لي أي فرد من أسرتي سؤالًا آخر.

استمرت تلك التمثيلية حتى دخلت غرفتي المظلمة وأوصدت بابها، ثم بترت المكالمة بكلمة «سلام» يتيمة، أغلقت من بعدها الخط من دون أن أنتظر ردًّا من صلاح.

وقفت حافيًا على السجادة الناعمة، أستند إلى الباب وأنا أزفر بضيق مسترجعًا كل تعليق سخيف قالته نادية، وكل نظرة شفقة تبدت على وجه جدتي وطارق.

ليتني لم آخذ بنصيحة دليلة وأصارحهم الآن!

أخذت نفسًا عميقًا لأرتب أفكاري، فاستُفزَّت جيوبي الأنفية من رائحة المنظف الكحولي الذي دعكت به فكيهة الأرضية هذا الصباح.

تتابعت عطساتي بلا هوادة حتى دمعت عيناي فتشوشت رؤيتي وأنا في طريقي إلى ريموت المكيف، وارتطمت إصبع قدمي الصغيرة بطرف الدولاب.

أطلقت سبَّتين غاضبتين من فرط الألم، ثم أخذت

الريموت من على رف خزانة ثيابي العلوي حيث خبأته من ابنَي نادية.

جربتُ الضغط على ما بقي من زر التشغيل الأحمر، ولكنه لم يستجب. لم يعد هناك مجال للشك في أنه تلف بسبب التوأمين اللذين قررا ترك جميع أصناف الطعام الشهية التي أعدَّتها لنا جدتي، وتسللا إلى غرفتي ليعضَّا الريموت كجروين بريين، فقضما نصف الزر المستدير، ولولا تدخلي في الوقت المناسب لربما ابتلعه أحدهما واختنق لا قدر الله.

أعدت الريموت إلى مخبئه، ثم فتحت نافذتي عسى أن أستقبل نسمة ليلية لطيفة تغتال حرارة أغسطس الغاشمة التي عبَّأت الغرفة.

بمجرد أن فتحت النافذة المطلة على نيل جاردن سيتي، باغتني الجو الساخن المكتوم، واقتحمت ضوضاء المدينة غرفتي.

موسيقى المهرجانات الصاخبة التي تصاحب مرور المراكب ذات الإضاءة الفاقعة، وأبواق السيارات، وسباب سائقيها الذين نفد صبرهم من حر الصيف وزحام الكورنيش على الرغم من أن اليوم هو الجمعة. ولكن في القاهرة، كل ساعة هي ساعة ذروة مرورية.

تركت النافذة مفتوحة على مصراعيها حتى أتخلص من رائحة المنظف المقيتة، وبدأت أرتدي ثيابي وأنا أتكيف مع ضوضاء المدينة، فبيتنا لم يكن أهدأ من الشارع على أي حال.

زررتُ قميصي الأبيض المفضل وأنا أسمع تالا تزجر أخاها يحيى حتى يتوقف عن جذبها من ضفيرتها وهو يغني أغنية «Baby Shark» بصوت رفيع مزعج كصوت أمه.

شددتُ خصر سروالي الأسود بحزام جلد طبيعي ورثته عن أبي، بينما يتردد في الشقة وقع ركض ياسر حافيًا على البلاط يحمل هاتفًا تخرج منه أغنية تتكرر فيها كلمة «الجميزة» كتعويذة شريرة، والصغير يرددها ناطقًا الجيم دالًا:

- الدميزة. الدميزة. الدميزة.

لمعتُ حذائي وأنا أتأفف من صياح نادية الحاد في وجه طارق لأنه ترك هاتفه لياسر كي يسمع تلك الأغنية «البيئة» التي ستفسد ذوق ابنهما الموسيقي. كأن لسفاحي الريموتات هذين ذوقًا من الأساس!

علقت جراب طبنجتي في حزامي تجاوره الأصفاد، ودسست في جيبي دفتري الأسود وأنا في طريقي إلى

الكومود لأخذ مفاتيحي ومحفظتي وساعتي الفضية، ثم وقفتُ برهة أتدبر كيف سأغادر الشقة من دون أن تستوقفني نادية لتستكمل استجوابها السخيف لي.

جاء العون من السماء حين سمعت تشظي زجاج على الأرض تتبعه شهقة من جدتي، ثم صياحها وهي تقول بغضب أرستقراطي:

- الطفاية! منك لله يا نادية إنتِ وولادك! دي كريستال بلجيكي!

استغللت الفوضى التي اندلعت في غرفة المعيشة وتسللت إلى المطبخ. لم أشعل الضوء حتى لا ينتبهوا لي. فتحت الثلاجة فاستقبلتني ببرودتها ونورها الخافت، وأنا أسمع تلك المعزوفة المتكررة كل جمعة: اعتذارات طارق لجدتي على شقاوة ابنيه، وتوبيخ نادية الهستيري للتوأمين، وبكاء ياسر ويحيى بدموع التماسيح، وتمتمة جدتي بالفرنسية لتكظم غيظها من تربية نادية المائعة لصغيريها، وفي خضم ذلك كله، تالا ابنة السنوات السبع ترفع صوت التلفزيون إلى آخره حتى تتمكن من متابعة الأنمي الياباني «Lupin III vs. Detective Conan» متجاهلة كل الضوضاء التي تحيط بها.

مثلي مثل تالا، تجاهلت كل ما يدور في بيتنا وسرقت من

الثلاجة ليمونة بلدي صفراء صغيرة دسستها في جيبي، ثم هربت بخفة من فوضى شقتنا، فلديَّ جريمة قتل جماعي لأحلها.

* * *

خرجتُ من مصعد العمارة وأنا أفكر في سخافة عام ٢٠١٩ الذي لم أنعم فيه بلحظة مفرحة.

استفتحت العام بانزلاقي على سلم القسم فكسرت ساقي ولازمت الفراش قرابة الشهرين.

بحلول عيد الحب، كنتُ قد تعافيتُ من إصابتي وخرجتُ في موعد غرامي مع دليلة.

فعلتُ كل الأشياء الرومانسية التي اعتدت السخرية منها أيام عزوبيتي. ارتديتُ سترة صوفية حمراء، جهزتُ لحبيبتي باقة من زهور التوليب البيضاء التي تفضلها، وعلبة شوكولاتة، ودبًّا محشوًّا يكاد يضاهيني طولًا، واشتريتُ لها سِوار «Pandora» كانت شاركت صورته على الإنستجرام منذ شهر وهي تمتدح أناقة تصميمه ورِقة تفاصيله، وحجزت لنا طاولة في مطعم «Sizzler» المبني بالكامل تحت الأرض في المعادي.

تناولنا عشاءً شاعريًّا تحت ضي مصابيح المطعم

الخافت، ودندنت دليلة مع موسيقاه الكلاسيكية التي مثلت خلفية ممتازة لحديث حميمي غمرني بالسَّكينة وجعلني أجزم بأنني رجل محظوظ لأن الله اصطفى لي حب دليلة.

يا إلهي، كم أحبها!

أحب ملامحها المنمنمة، وسمارها، وعذوبة صوتها، وحماسة نبرتها حين تتحدث عن مستقبلنا، ولمعة الشغف في عينيها وهي تعزف التشيللو، وعطفها على الحيوانات، ودعمها لمن حولها، ومحبتها للكون بنهاره المشرق وليله المظلم.

أحب نفسي معها، أحب تأثيرها عليَّ، وأحتقر ما كنته قبلها، وأرتعب من التفكير فيما قد أكونه من دونها.

استمر معي هذا الشعور وأنا أعانق براحتَي كفَّيها الصغيرتين لأدفئهما في أثناء خروجنا من المطعم إلى الشارع البارد، ولكن بمجرد وصولنا إلى سيارتي تبخرت تلك السَّكينة الشاعرية وانقشعت الهالة الوردية، فقد اكتشفتُ أن نذلًا خسيسًا صدم نوبيرتي الحمراء المسكينة فدمر رفرفها وهرب.

اللعنة على شوارع المعادي الضيقة!

أمضيتُ الشتاء أعاني فراغ جيوبي إثر تكلفة إصلاح سيارتي عند طماشة الميكانيكي، إضافةً إلى جنون تقلب أسعار تشطيب الشقة وتجهيزات العرس، حتى أقبل علينا الصيف حاملًا وفيات عدة بين أفراد عائلتي. مات ابن خالتي، ثم ابن ابنة خالتي، وكانت تتمة الأحزان موت ابنة خالتي نفسها بعد أربع وعشرين ساعة من تلقيها خبر وفاة ابنها.

كانت ابنة خالتي الفقيدة ألد أعدائي!

في عمر الثامنة، أشاعت أمي عني أن الجن يسكنني، وأنني أحدث العفاريت، بسبب سقوطي في مقبرة جبل الموتى في سيوة، فلم تترك ابنة خالتي التي تكبرني بعامين فرصة من دون أن تناديني بـ«الملبوس»، وتحث أقاربنا وأصدقاءنا المشتركين على السخرية مني واستبعادي من أي لعبة جماعية، وأبغض ما كانت تفعله هو جعلي ضحية مقالب كذبة أبريل التي تعدها كل عام هي وشقيقها الذي لم يكن أقل سخافة منها، حتى سئمت من تنمرها ولؤمها، وقررت اعتزال ما يؤذيني فتوقفت عن التواصل معها ورفضت حتى حضور زفافها.

أخبرتني نادية ذات مرة أن هذه القطيعة غير مبررة، فابنة خالتنا لم تعد متنمرة في العاشرة من عمرها، لقد تغيرت

أخلاقها منذ أن تُوفِّي والداها في حادث، وتولت أمي تربيتها هي وأخيها.

بطريقة ما هذبها الفَقد، ثم جعلتها الأمومة أكثر رحمة، ولكنني ظللتُ مقتنعًا حتى آخر لحظة بأنها ما زالت الطفلة المؤذية السخيفة ذاتها التي أمقت ذكرها.

أعي أنه من الغباء أن أثقل كاهلي بحمل هذه الضغينة لعقدين من الزمن، ولكننا كبرنا والتقينا في أكثر من مناسبة عائلية، وكنتُ دائمًا أنتظر منها اعتذارًا، أو على الأقل اعترافًا بأنها آذتني، ولكنها لم تفعل ولو على سبيل الدعابة، فحافظتُ على هذه الضغينة لأنها ببساطة لم تفعل ما يدفعني إلى إلقائها وراء ظهري.

مع ذلك، أفجعني خبر موتها المفاجئ، وأدركتُ وأنا أقف بجوار زوجها لتلقي عزائها أنني لم أكن أكرهها لأنها كانت تتنمر عليَّ كما يفعل سائر أولاد خالاتي، بل كنتُ أحقد عليها لامتلاكها شيئًا افتقدته وتُقتُ إليه لعشرين عامًا: عطف أمي ومحبتها.

لم يفارقني الحظ العثر بعد تلك الليالي الحزينة، بل هأنذا أرى بوادر مرافقته لي، إذ أجد قط شارعنا الأسود يربض فوق كبوت سيارتي وأنا أقف أمامها.

كالعادة، اختار نوبيرتي المسكينة دونًا عن باقي سيارات الشارع كي يخربش كبوتها بمخالبه ويبصم على زجاجها الأمامي بقوائمه المحملة بالرمل والطين غير مبالٍ بأنني نظفتها تنظيفًا مكلفًا بالأمس.

يترصدني قط شارعنا أكلح الوجه هذا يوميًّا كمخبري المباحث بمجرد نزولي من سيارتي. مهما أعربت له عن انزعاجي من ملاحقته لي، كان يتجاهلني ويستأنف مرافقتي حتى أدخل عمارتنا وأغلق بابها خلفي وأنا أتساءل، أيصر على تتبعي لأنه نرجسي لا يبالي بما أريد، أم لأنني أبله يعتقد أن قطًّا سيفهم أوامره وينفذها؟

ببلاهتي المعتادة، طلبت منه الآن أن ينزل عن سيارتي ولكنه تمسك بموقفه الجائر.

ضغطتُ على زر الإنذار عسى أن ينزعج من رنينه ويرحل، فنظر إليَّ بطرف عينه الصفراء بغطرسة لورد إنجليزي، وظل يلعق قائمته الزغبة بلسانه الوردي الخشن.

خشخشت مفاتيحي وأنا أفتح قفل الباب، فانتبه للصوت ورفع أذنيه واتسعت حدقتاه المستديرتان وأخذ طرف ذيله يهتز فوق الكبوت.

قفز اللورد الأسود نحوي ولكني تراجعتُ بسرعة فحط برشاقة على قوائمه من دون أن يرتطم بي.

أقبل عليَّ، فهششته بحزمٍ مما جعله يستدير موليًا إليَّ مؤخرته في اللحظة التي رجعت فيها خطوة إلى الوراء حتى أركب السيارة فدعست بكعبي طرف ذيله من دون قصد.

هسهس بشراسة، وراح يموء وكلي ثقة بأن هذا المواء لفظ نابٍ في لغة القطط، فسببته بدوري وأنا أركب السيارة وأغلق بابها.

أدرتُ المحرك فصرخ ويجز من مشغل موسيقى السيارة بأعلى صوته:

باااااظت

باظت خالصصصص

أجفلتُ، وأسرعتُ أخفض صوت الأغنية التي كان لشقيقة دليلة الفضل في تعريفي عليها وعلى باقي أغاني الراب المصري المعاصرة.

استأنفتُ القيادة إلى آخر الشارع وويجز لا يمل من التأكيد على أنها «باظت خالص»، حتى تحققت نبوءته و«باظت» فعلًا.

ظهرت علامة التنبيه الحمراء الخاصة بمؤشر حرارة المحرك، ثم ضعف عزمه، فصففتُ السيارة على حيد الطريق ولمحت دخانًا هزيلًا ينبعث من الكبوت.

نزلتُ منها وأنا أتمنى ألا تكون نوبيرتي التي لطالما كانت صبورة على إهمالي لها قد قررت أن تثور عليَّ وتطلب تغيير جوان السلندر الآن.

فتحت الكبوت فلفحتني حرارة الدخان المقيت، وبمجرد فحص الزيت واكتشاف أن لونه صار بيج شاحبًا وقوامه دهنيًّا ثقيلًا مثل الطحينة، أدركت أن أمنيتي لم تتحقق، السيارة فعلًا في حاجة إلى تغيير جوان السلندر.

صفعتُ الكبوت وأنا ألعن حظي ثم أطفأت الأغنية الشؤم وأوصدتُ الأبواب وأنا أواسي نفسي بأن عمارة سيف الدين تبعد عني بمسافة دقائق سيرًا على الأقدام، لست في حاجة إلى السيارة الآن.



دسستُ يدَي في جيبَي سروالي منصتًا إلى حفيف أشجار جاردن سيتي، التي تستدير شوارعها الحدائقية ليتصل بعضها ببعض في النهاية كأنها شبكة عنكبوت.

هربت من أفكاري السوداوية بأن نفذتُ ما اقترحته دليلة عليَّ في جلسة قهوة صباحية منذ يومين: إذا أزعجك مَن في الأرض، ارتقِ بنظرك وتطلع إلى السماء حتى تجد فيها سكونك.

رفعت عينَي عن الرصيف الذي أسير عليه ونظرتُ إلى أعلى فلمحت بدر الصيف يتسلل من بين أوراق الشجر.

تلك الصخرة الاتكالية الطافية في الفضاء البعيد عكست ضوء الشمس وألقته على وجهي المحبط من دون أن تثير فيَّ أي شعور بالسكون أو الاسترخاء، أو أيًا ما كانت الترهات التي يؤلفها الشعراء حتى يوقعوا المعجبات في غرامهم، بل إنني كدت أتعثر في حجر يتوسط الرصيف بسبب تحديقي إلى أعلى كمتسول هائم على وجهه.

نظرت مرة أخرى إلى الأرض واستأنفتُ السير بخليط من الغضب والتشاؤم حتى سور قصر علي باشا إبراهيم، الذي صُوِّرَ فيه فيلم «الناظر».

شهد هذا القصر على آخر نزهاتي مع أبي وأنا في عمر العاشرة بعد انتهائنا من مشاهدة «الناظر» في سينما «المنارة» الصيفية، مستمتعين بالهواء الطلق ونجوم السماء مع أسرة قطز.

انتبه ليلتها لضحكاتي الطفولية أنا وقطز مع كل مشهد في الفيلم، فأخذنا من يدينا اللتين تفوح منهما رائحة الفشار المملح و«اللوليتا» بالفراولة ليرينا من بين قضبان السور، سلالم البهو المزخرف الذي وقف علاء ولي الدين رحمة الله عليه تحت قبته، ليقود طابور

مدرسة عاشور للبنين ويمتدح «طعمية الكانتين السخنة بالسمسم».

كان السير بمحاذاة سور هذا القصر هو ملاذي كلما رقَّ قلبي لذكرى أبي طيلة طفولتي. أنا وقطز نركب دراجتينا ونقف عند السور نقرأ الفاتحة لأبي ونرثيه كأننا أمام نصب تذكاري لحنانه وحبه لعلاء ولي الدين، وفي مرة انهمكنا في حالة النوستالجيا تلك ونحن نقود دراجتينا الصغيرتين ففقدنا تركيزنا واصطدمنا بسيارة جيب سائقها غشيم، فكُسرت ذراعي وساق قطز وعُوقبنا بحرماننا من ركوب الدراجات نهائيًّا.

وقفتُ أسترجع تلك الذكريات وأقرأ الفاتحة على روح أبي بشوق حارق وفقد عميق كأنه مات اليوم وليس منذ عشرين عامًا، حتى شعرتُ بهاتفي يهتز في جيبي هزة مقتضبة.

تفقدته فوجدت رسالة من دليلة، قرأتُ محتواها فثبتُّ في مكاني ثبات الدجاجة فوق الميزان قبل ذبحها.

أعدتُ قراءة الرسالة المكونة من جملتين اثنتين، قرابة الخمس مرات لأتأكد من أنني لم أسئ فهمها، ثم زفرتُ بثقل يليق بالضيق الذي يعتصر أحشائي.

جلستُ على طرف قاعدة سور القصر الرخامية وتفقدتُ الساعة، إنها التاسعة إلا الربع مساءً.

لا يفترض بي أن أدخن سيجارة إلا بعد ربع ساعة من الآن إذا كنتُ أنتوي الالتزام بخطة تقليل التدخين التي وضعتها أنا ودليلة، ولكن فلتذهب الخطط إلى الجحيم الآن، أنا بحاجة إلى النيكوتين حتى أفكر في رد يناسب ما أرسلته إليَّ.

بعد نفسين من سيجارتي، تشجعت أن أهاتفها لأفهم سبب تلك الرسالة اللعينة.

أتاني صوتها قبل أن ينفصل الخط، كأنها ترددت أن تستقبل مكالمتي من الأصل.

ردت تحيتي وسؤالي عن حالها بنبرة مبحوحة ففهمت أنها بكت بعنف قبل أو بعد تلك الرسالة، ثم سمعتُ أنفاسها تضطرب في أثناء سكوتها فعلمتُ أنها تجاهد لتمنع نفسها من البكاء مجددًا.

اختصرتُ عليها المقدمات التي لا طائل منها بأن سألتها:

- إيه اللي حصل عشان تفركشي خطوبتنا على الواتس آب؟

فشلت في السيطرة على دموعها فارتعش صوتها وهي تبرر:

- أنا آسفة يا نوح. ما جتليش الجرأة إني أقولهالك ولو حتى على التلفون.

- وتقوليها ليه أساسًا؟ مش كنا قفلنا الموضوع ده إمبارح؟

- قلبي مش مطاوعني. إنت مهما حلفتلي هيفضل ضميري يقولي إني بظلمك معايا وبجبرك تتنازل عن أحلامك.

سمعتها تنشج، فتخيلتها تمسح بأناملها المطلية أظفارها بالأزرق السماوي، دموعها الممزوجة بكحلها السائل وترجع شعرها الأسود الذي طال حتى كتفيها، خلف أذنها الصغيرة التي تتدلى منها عدة أقراط رقيقة.

آلمني ألمها، وقهرني قهرها، وتسللت دموعها إلى عينَي، حتى كدتُ أن أصاب بعدوى بكائها.

ازدردت ريقي بصعوبة، ثم زفرت دخاني وقلتُ بنبرة مرحة تجيد ستر الحزن الذي يسكن قلبي:

- يا دليلتي أنا عايزك إنتِ وبس. ورحمة أبويا ما فارق معايا أي حاجة تانية دلوقتي.

- طب وبكرة؟

- بكرة وبعده ولحد الألفية الجاية. أنا عمري ما كنت

واثق من قرار قد قرار جوازنا. والمفروض إنتِ كمان تثقي في قراراتي. أنا راجل قد كلمته ولّا كيس مخدة؟

ضحكتْ، فأتت نسمة صيفية واهنة لطفت جبيني الندي.

أجابتني بدلال يسهل إدمانه:

- راجل وسيد الرجالة كمان.

- أهو ده اللي باخده منك، تثبتيني بكلمتين حلوين وبعدها تتصرفي تصرف يفقع المرارة. أنا هعتبر إن المسدج دي أضغاث أحلام، ولّا إنتِ ليكي رأي تاني؟

وشت لي أنفاسها بأنها تبتسم، فاستمتعت بتنهيدتها قبل أن تقول:

- طب ممكن طلب أخير؟

- أؤمر يا قمر.

- من هنا لآخر الأسبوع تفكر.

- يا دي النيلة!

- إنت بقالك سنة مسحول معايا ومش مدي نفسك فرصة تفكر. لازم تاخد مني بريك وما نتكلمش خالص عشان تقدر تحسبها صح من غير ما وجودي يأثر عليك.

- بريك؟ أهو كلام تويتر ده اللي هيخرب علينا!

ضحكت، ولكن روح المحقق بداخلي استفاقت من غفوتها وبدأت تربط الأمور بعضها ببعض مما جعلني أطرح عليها سؤالًا سيطر فجأة على تفكيري:

- دليلة إنتِ خلتيني أقول لتيتة ونادية دلوقتي عشان فاكرة إنهم هيقولولي أسيبك فتبقى جَت من عندنا؟

صمتت، فعرفتُ أن استنتاجي في محله.

- للدرجة دي فاكرانا عيلة واطية؟

- لأ طبعًا! بس أنا عارفة إنهم هيفضلوا مصلحتك عن مصلحتي مهما كانوا بيحبوني، وده مش عيب أصل...

- بلا أصل بلا فصل. خطتك فشلت يا هانم وتيتة اللي حاطة نقرها من نقرك حلفت ميت يمين نتجوز النهارده قبل بكرة.

- ونادية؟

فليسامحني الله على هذه الكذبة البيضاء.

- نادية مستنياكي تديها ميعاد عشان تختاروا فستان الفرح سوا.

- يعني أهلك متقبلين الوضع؟

- متقبلينه أكتر مني.

- بجد ولا بتجبر بخاطري؟!

- أطلع لك بيان من الداخلية عشان تصدقيني يا دليلة؟! يا حبيبتي محدش عنده مشكلة معاكي، كلنا متقبلينك زي ما إنتِ متقبلانا. ممكن بقى نقفل السيرة دي ونركز في اللي جاي؟

- معلش، يا نوح. خدني على قد عقلي المرة دي. سيبك من رأي الناس كلها واسمع عقلك بيقولك إيه. أنا مش هستحمل إن ييجي يوم وتحس بالندم علشان اخترتني.

يبدو أنها قررت الليلة أن تضع علاقتنا تحت المجهر وتفرط في الفحص والتمحيص في مستقبلنا، وأنا بطبعي شخص يكره الإسراف في التفكير في البديهيات، ولكن فلتذهب كل طباعي وعاداتي إلى الجحيم إن كانت ستزيد من قلق دليلة.

لو أن ما سيريح بال حبيبتي ويطمئن قلبها هو أن أفرط في الثبات على موقفي، وتأكيد حبي الصادق لها في كل لحظة وفي كل ثانية إلى أن نتخطى تلك المحنة معًا، فسأتحلى بالصبر وأفعل ذلك عن طيب خاطر.

هيمن الحر الخانق على الجو ثانية وأنا أدعس عقب سيجارتي بحذائي وأقول:

- بريك لمدة يوم واحد هيكون كفاية عشان قلبك يطمن، وبعدها نشوف الصنايعي هبب إيه في تشطيب المطبخ.

- دي مدة قصيرة عشان...

- هي أربعة وعشرين ساعة بالدقيقة والثانية يا دليلة يا ياسين يا جارحي! ده آخري معاكي في شغل الخواجات ده. قشطة؟

أضحكها غضبي المغلف بشيء من الفكاهة، ثم قالت:

- الساعة دلوقتي تسعة إلا عشرة. أستناك بكرة في نفس الوقت تقولي قرارك؟

- يا حبيبتي ما إنتِ عارفة قراري. بس ماشي، هجاريكِ، إن شاء الله هاكلمك بكرة في نفس التوقيت لو ما كانش الشوق غلبك وكلمتيني إنتِ الأول.

- طب تراهن على كام إن إنت اللي هتكلمني الأول؟

- أراهن ليه وأنا عارف إنك هتوحشيني وهخسر الرهان.

ضحكتْ مجددًا، فابتسمتُ تلقائيًّا.

لا بأس إن هزمتني في هذا الجدال أو أخضعتني لرغبتها، المهم أنني فزتُ بضحكتها العذبة.

٢

باقترابي من موقع الجريمة في شارع القصر العيني، خلعت رأسي الذي يعج بمشاكلي الشخصية من فوق كتفَي، ووضعت مكانه رأس ضابط أريب لا يشغل باله سوى رغبة متَّقدة في العثور على القاتل الذي نفَّذ جريمته الشنيعة وهرب.

توقفت أمام العمارة التي تشتهر بضخامتها إلى درجة أن طابقها السفلي يضم ما يزيد على خمسة عشر محلًّا.

ألقيت نظرة خاطفة على خراطيم المكيفات وأسلاك أطباق القمر الصناعي المتدلية على طول طوابقها الستة كأذرع أخطبوط يخنق أصالة العمارة العتيقة، التي تَشوَّه طلاؤها من تراكم دخان عوادم السيارات وهباب مداخن المطاعم والمقاهي عليها.

تجاهلت تلك الملاحظات التي لن تفيدني في التحقيق،

ووقفتُ ألقي ليمونتي الصفراء إلى أعلى ثم أتلقفها بخفة، بينما أدرس الوضع المزري الذي وجدت عليه موقع الجريمة.

أغلق العساكر الحارة المرورية المجاورة للعمارة، وحصروا حركة المرور في حارة واحدة. تصرف سليم، ولكن ما لم يكن سليمًا أبدًا هو تجمهر المدنيين حول الشريط الأمني الأصفر، تنعكس على وجوههم المتطفلة أضواء سيارة الإسعاف الحمراء والزرقاء، بينما يتردد في الأفق صدى سارينة بوكس المباحث الذي تتبعه سيارة الطب الشرعي.

لا أعرف تاريخ بنايات القاهرة الخديوية مثل قطز، ولكن بحكم أنني قضيت حياتي كلها في جاردن سيتي، فأنا أعرف أن لعمارة سيف الدين مدخلين، مدخل رئيسي يطل على شارع القصر العيني، حيث أقف الآن، والآخر يقع في شارع حسن مراد. التصرف الأمني البديهي في هذه الحالة هو أن يتسع الطوق الأمني ليشمل المدخلين ورصيفيهما بالكامل، ولكن صلاح الجهبذ الذي سيجلطني في يوم من الأيام، لم يفعل ذلك. الشريط الأصفر المتهالك لم يشمل سوى المدخل الرئيسي.

فارت الدماء في عروقي وأنا أتخيل القاتل قد بصق على

الرصيف أو ألقى عقب سيجارة دخنها، أو رمى منديلًا مسح به عرقه أو وقعت منه شعرة قبل دخوله إلى العمارة أو في أثناء هروبه منها، فلا شك أن هذا الدليل دُمِّر تحت أقدام الناس، أو لوثه الكلب البلدي الذي صعد الرصيف ورفع لتوه ساقه على حائط العمارة ليبول على مسرح الجريمة.

أعدتُ الليمونة إلى جيبي وأسرعتُ خطواتي أعبر الطريق وصولًا إلى الحارة المغلقة فسمعتُ العسكري صيدناوي الواقف ببندقيته الميري المعلقة على كتفه، ينهر بلهجته القروية اللاذعة السكان الفضوليين وبعض صحافيي الحوادث المتزاحمين حول الشريط.

صحتُ في الجميع بنبرة ميري حازمة:

- اخلوا المنطقة يا حضرات! مش عايز بني آدم هنا!

انتبه لي صيدناوي فاقترب مني مؤديًا التحية العسكرية، يتبعه شاب ثلاثيني مهندم يرتدي قميصًا رماديًّا نظيفًا ويسبر أغوار أنفه بسبابته.

تجاهلتُ هذا المنظر المقزز وأمرت صيدناوي:

- مِدلي الشريط ده لتحت الرصيف! خمس دقايق والأمن يستتِب!

- حالًا يا نوح باشا!

اقترب الثلاثيني يمد كفه نحوي ليصافحني بابتسامة غير مبررة، فتهربتُ من لمس اليد التي كانت تنقب بإصبعها عن البترول في أنف صاحبها منذ لحظة بأن سألتُ صيدناوي:

- مين البيه؟

وضع يده على صدره بتواضع وأجابني قبل أن يفتح صيدناوي فمه:

- محسوبك أبو وردة حارس العمارة. شباب الكول سنتر بتوع وردية الليل وصلوا وكانوا عايزين يطلعوا يطمنوا على زمايلهم و...

- يطلعوا يطمنوا عليهم على أساس إنهم محجوزين في الحميات؟ ده موقع جريمة! محدش هيدخل العمارة غير لما الطب الشرعي يخلص شغله!

- أوامرك يا باشا. ما تؤمرنيش طيب بأي حاجة؟

- حافظ عربيات سكان العمارة؟

- زي ما حافظ اسمي يا باشا.

- هتعرف تساعد صيدناوي يخْلي المنطقة؟

- أساعده بس! ثانية يا باشا والشارع يبقى ما فيهوش صريخ ابن يومين.

غاب أبو وردة عن نظري وأنا أشرح لصيدناوي:

- عايز الشارع سجادة. بعدها تلف حوالين العمارة تسجل لوحة ونوع كل عربية راكنة، وتخلي أبو وردة ده يميز لك أي عربية غريبة عن المنطقة. واضح؟

- واضح يا باشا.

- الرائد صلاح فين؟

- عند المدخل الوَراني.

بمجرد أن التفت خلفي، رأيتُ أبو وردة يهرول بحماس صوب المتجمهرين حاملًا عصا ممسحة هزيلة يلوح بها في الهواء كراعٍ يقود قطيعًا من الأغنام، لينفذ مهمة إخلاء المنطقة.

قلتُ لصيدناوي:

- الحق ابن العبيطة ده قبل ما يعوَّر حد!

تركتُ صيدناوي يسيطر على الحارس الأهوج، وبدأت أسبح بين الجموع متأففًا من رداءة إدارة صلاح للوضع.

تلقفني ازدحام المارة في محاولتي للوصول إلى مدخل

العمارة الخلفي. دُفِعتُ إلى الأمام مرة وإلى الخلف مرة، فكانت تتمة هذه الفوضى أن ارتطم بي مراهق يشرب عصير توت فتناثر عليَّ تاركًا بقعة حمراء داكنة على قميصي الأبيض الناصع أسفل صدري الأيسر.

اللعين لم يتوقف ليعتذر مني، بل تابع ارتطامه بالمشاة وتركني أنا وبقعتي وغضبي.

حاولتْ سبة متمردة أن تفر من بين شفتَي، ولكني حبستها من دون أي إمكانية للإفراج عنها، فأنا الآن ضابط مسؤول عن موقع جريمة ويجب أن أبقي أعصابي وانفعالاتي تحت السيطرة.

أكملت طريقي بمحاذاة العمارة مرورًا بمحل السِّمري الذي تتفاخر جدتي بأنها جددت غرفة السفرة منه في تسعينيات القرن الماضي، ثم بمتجر حيوانات أليفة يتوسط واجهته حوض أسماك زينة عملاق، ومن بعده حلواني تسيباس الذي يأخذ زاوية العمارة اليسرى ليكون حلقة الوصل بين شارع القصر العيني، وشارع مديرية التحرير الذي يتفرع منه.

كان الشارع الفرعي أهدأ وأضيق من الشارع الرئيسي، يشغل الطابق السفلي من جميع عماراته الكلاسيكية المتقابلة، صيدليات وبنسيونات ومحال دواجن وجزارة،

مما دفعني إلى التساؤل، هل أخذ القاتل حيطته لتجنب الظهور في كل كاميرا مراقبة متدلية من كل محل، أم أنه عديم الخبرة وسنتمكن من رصده في أول فيلم مراقبة سيفرغه مصطفى خبيرنا التقني؟

تتبعتُ محيط العمارة حتى لفتت انتباهي لافتة سوبر ماركت عند الناصية التي يتفرع منها شارع حسن مراد.

كانت لافتة زرقاء مطبوعًا عليها صورة لشاب ثلاثيني، أذناه ضخمتان مستديرتان تحيطان بوجه شديد النحافة، وأضيفت من خلفه بفوتوشوب رديء صورة ولد وبنت صغيرين يبدوان نسختين طبق الأصل عنه، وتتوسط اللافتة بأحرف حمراء جملة:

نور ومهند ماركت

تجاهلت رداءة تصميم اللافتة وركزتُ على التفصيلة التي ستفيد تحقيقي، كاميرا المراقبة العتيقة المتدلية بزاوية لا تغطي مساحة أوسع من مدخل السوبر ماركت من جهة شارع حسن مراد، والذي تسده سيارة عالية على الأغلب ستحجب نصف رؤية الكاميرا.

أخرجتُ من جيبي دفتري الصغير وقلمي لأسجل تلك الملحوظة وقد بدأ عقلي يزدحم بالتساؤلات.

لو أنني قاتل أملك أقل قدر من الذكاء لن أدخل العمارة من المدخل المطل على شارع القصر العيني، حيث عشرات الشهود في المقاهي البلدي والمطاعم والمحلات، إضافة إلى أنه لو معي سيارة سأجبر على تخطي الشارع الرئيسي الذي يُمنع فيه اصطفاف المركبات من الأساس.

لو أنا القاتل، سأتسلل إلى العمارة من شارع حسن مراد، حيث هدوء الفلل الأثرية التي هجرها أصحابها والمباني العتيقة التي لا يقطنها سوى المسنين ضعيفي النظر وثقال السمع، وحيث يهيمن الظلام على ملامح الشارع نتيجة تعانق أغصان الأشجار الكثيفة، وتنعدم كاميرات المراقبة إلا من كاميرا وحيدة عتيقة تخص نور ومهند ماركت.

توقفت عن الكتابة واستأنفتُ السير حتى رأيتُ شيئًا يلمع في الظلام، قميص صلاح الأحمر الفاقع.

كان على بُعد ثلاثة أمتار من مدخل العمارة الخلفي يأكل شرائح لانشون من دون خبز ينتشلها من طبق فوم أبيض، بينما يتحدث مع رئيس فريق الطب الشرعي، الطبيب حسني المستكاوي.

يقف حسني ببدلة البولي إيثيلين البيضاء وغطاء الرأس

وقفازي اللاتكس، وغطاء القدمين فوق حذائه الطبي، وكمامته تتدلى أسفل ذقنه وهو يتحدث مع صلاح بلغة جسد تنم عن اعتراضه على شيء ما.

سرتُ نحو زميلَي وكلي فضول لأفهم لماذا يلقي صلاح قطعًا صغيرة من اللانشون في جيب قميصه الواسع، ولكن استوقفني قبل أن أصل إليهما أنين بكاء وهمسات بلغة أجنبية أظنها الفرنسية، لأن وقعها على أذني كوقع لغة النميمة التي تتحدث بها جدتي وصديقاتها من مدرسة «لا مير دي ديو».

التفتُّ حيث الصوت، فرأيتُ سيارة سكودا بنفسجية تقابل العمارة، يستند إليها شاب طويل شعره كستنائي كثيف، يرتدي تيشيرتًا مطبوعًا عليه رسمة كارتونية للجوكر وباتمان، وسروالًا أسود قصيرًا من ماركة حذائه الرياضي الباهظ نفسها.

كان يهز رأسه بتفهم وهو ينصت إلى حديث شابة شقراء مذعورة متخففة من ثيابها، تضع على كتفيها شالًا صيفيًّا شفافًا تمسح بطرفه أنفها الذي سال مع دموعها، فانتبه لتلك الفعلة المقززة وفتح باب السيارة، انتشل علبة المناديل من على التابلوه وأعطاها للفتاة الباكية.

لم أطل النظر إلى الشابين المتحدثين بالفرنسية، فقد

لمحني صلاح وأشار إليَّ بالاقتراب قائلًا بترحاب نبطشي الفرح:

- عم عيالي وصل!

منحني صلاح لقب «عم عيالي» منذ أن ساعدته على حل قضية مقتل زوج أخته صباح، العام الماضي، بل وصار يعزني إلى درجة أنه توقف عن مناداتي بـ«الرائد ليمونة»، فقابلت هذا الترقي في هرم صلاح الاجتماعي بأن صرتُ أناديه هو أيضًا بلقب يرضي غروره.

- باشا مصر!

تصافحنا بطرقعة وصل صداها إلى حدودنا مع السودان كما يليق بفحلين مصريين، ثم سمعتُ مواءً ضعيفًا، فتلفتُّ حولي ولكني لم أجد أي قطط في الجوار.

أخرجني من أوهامي لمس صلاح لبقعة عصير التوت على قميصي ثم لعق إصبعه وسألني:

- كنت بتشرب عناب ولا إيه؟

تغاضيتُ عن تصرفه العشوائي وقررتُ ألا أبوح له بما يغمر صدري من غيظ، ثم ألقيتُ التحية على حسني فردها بنبرة فاترة وهو يلوي شفتيه الرفيعتين.

- لاوي بوزك ليه يا دكتور؟

- أنا ما بكرهش حاجة في حياتي قد شغل عُكها وربك يفكها اللي بتعملوه ده يا نوح!

مدَّ يده نحو جيب صلاح وأخرج منه هريرة بيضاء في حجم الكف ملفوفة في ورقة A4 وفي فمها لُقيمَة لانشون من التي كان يلقيها في جيبه الفسيح، والذي من الواضح أنه جعله مسكنًا للهريرة التي اكتشفت بعد لحظات من التدقيق أن وجهها وشواربها ملطخان بدم جاف وكذلك قائمتاها الأماميتان.

إذن، لم أكن أتوهم حين سمعتُ مواءً وصلاح يصافحني!

سألتُ صلاح:

- إيه ده يا باشا؟

- الشاهدة.

- إنت لما قلتلي في التلفون إن الشاهدة قطة افتكرتك تقصد مُزة مش قطة بجد.

وكز صدري بكوعه وقال وهو يغمزني غمزة موحية:

- شقي إنت برضو يا نحنوحة.

ليته ما زال يناديني «الرائد ليمونة» بدلًا من كل مشتقات تدليل اسمي التي تصيبني بالغثيان.

وجه حسني حديثه إليَّ وقد نفر العِرق الذي يتوسط جبينه العريض وهو يقول بغضب:

- دي القطة اللي صلاح لقاها في الشارع عند سلم الخدم والدم اللي عليها ده دم القتيل أو دم القاتل، يعني القطة دي دليل جنائي. قلت له يتحفظ عليها في مظروف ورقي لحد ما أوصل أنا وفريقي. لقيت الباشا ناشل ورقة من مكتبة تصوير ولافف القطة قرطاس وبيأكلها لانشون. ناقص يحميها!

سأله صلاح ببرود يثير الأعصاب:

- إنت مشخصنها مع القطة ليه يا دكتور؟ لو عينك في اللانشون قولي.

- ده إنت مصمم تجلطني بقى! أنا مش هسكت. أنا عندي سُلطة و...

- تتربى في عزك السُّلطة يا أبو سُلطة! الدليل معاك أهو ومسرح الجريمة قدامك. اتكل على الله وما تاكلش دماغي.

وقف حسني يتدبر ما قاله صلاح، ويبدو أنه عجز عن إيجاد

أي رد فعل يناسب همجيته، فاستسلم وأخذ منه الهريرة وهو يتمتم بغضب، ويهددنا بالتقرير الذي سيسجل فيه إهمالنا حتى رحل عنا ودخل العمارة.

ضحك صلاح ضحكته الجلفة وأخذ آخر شريحة لانشون ثم ألقى الطبق الفوم الأبيض الفارغ في الشارع الراقي النظيف وهو يقول:

- هيعملي فيها المفتش كرومبو بروح أمه! نسي العك اللي لمناه وراه في جريمة أبو الفدا ولا إيه؟

- طب بذمة أهلك ده منظر موقع جريمة. إنت راضي عن الطوق الأمني؟

- يا نحنوحة دي مش تعليماتي، أنا زيي زيك جيت لقيت الوضع مأندل كده.

- مش تعليماتك إزاي وإنت المستجيب الأول للبلاغ؟

- ما أنا جايلك في الكلام. أنا كنت قاعد في القسم والصهد بياكل في جتتي. التكييف بايظ والمروحة بتزِن زن ألعن من زن البت سماح الله يحرقها. قلت ما بدهاش، خدت البوكس ألف لفة أمنية وأشم شوية هوا وأشدلي حجرين على قهوة «بعرة»، مفيش نص ساعة لقيت دودي بيكلمني و...

- دودي مين؟

- ملازم جديد بدأ معانا النهارده.

أخرج من جيبه علبة سجائر كليوباترا جديدة، فكَّ غلافها السيلوفاني، وانتقى لنفسه سيجارة أشعلها، ونفث دخانها في اتجاهي بفظاظة ثم استأنف حديثه:

- دودي قالي إن النجدة جالها بلاغ من شاهدة فرنساوية ساكنة في عمارة كونياك.

- فين عمارة كونياك دي؟

- يا جدع العمارة اللي عليها إعلان كونياك قديم في ضهرك أهي. المهم يعني مطابخ العمارتين بيطلوا على بعض، فشافت الجريمة وبلغت. أنا قلت لدودي يسجل الأقوال ويسبق هو ومصطفى آي تي يشوفولنا الكاميرات ويأمنوا الموقع على ما أوصل، حاكِم أنا يا قلب أخوك كنت في شارع لا مؤاخذة كلوت بِك بستلم المروحة من الكهربائي النصاب ابن الـ...

- لحظة، أفهم. يعني دودي هو المستجيب الأول؟ خليت ملازم مستجد يبقى قائد موقع الجريمة يا صلاح؟

ضحك نصف ضحكة مفتعلة يستخف بها بسؤالي المنطقي، ثم قال بنبرة استنكارية:

- هو أنا يا نحنوحة لا مؤاخذة لابس كفولة وبقول إمبوه؟!

صمت في انتظار أن أجيب عن سؤاله العبثي، فقلتُ ساخرًا:

- ما أظنش إنك لابس كفولة يا صلاح.

- أومال إيه الأسئلة اللي تصغَّر دي؟ المستجيب الأول يا قلب أخوك هو عميد النجدة نادي الناجي.

- يعني ده اللي هنقوله للنيابة؟ الدنيا مبهدلة عشان النجدة استجابت قبل المباحث؟

- وكيل النيابة جِه وأنا ظبطت معاه الدنيا، استهدى بالله بقى.

- سامر المنيري؟

- لأ، رياض السعيد. شاب قِتم زيك بس أنجزنا.

- مقبولة منك يا سيدي، رياض بيه أنجزك في إيه بقى؟

- الواد قد الديب فريزر وشبه رفاعي الدسوقي وبيبرق زي البومة كده. فضل واقف سادد باب الشقة ما خلاش نفر يدخل غير لما وصلت، وعميد النجدة كان ظبط هو الطوق الأمني مع فادي والعساكر. لو أنا اللي وصلت قبل فادي كنت شديتلكم طوق يرقينا لواءات.

- طب وإنت ما عدلتوش ليه يا صلاح أول ما وصلت؟

- مش كنتُ بَأمِّن القطة لحد ما الطب الشرعي ييجي!

صحيح أنني وصلاح تخلينا عما بيننا من خصومة، وصار بيننا احترام متبادل، ولكن تكاسله ولامبالاته ما زالا قادرَين على إشعال جذوة غضبي.

زفرتُ منفسًا عن انزعاجي ثم سألته:

- جِبت اللاسلكي بتاعي؟

أخرج من جيبه مفاتيح بوكس الشرطة وهو يقول:

- هتلاقيه في التابلوه.

سرتُ حتى البوكس، أخذت جهازي اللاسلكي من التابلوه، ضبطت موجته ومستوى صوته ليكون عاليًا بما يكفي لسماع أي إشارة إخبارية مهمة، ولكنه منخفض بما يكفي حتى لا يصيبني بالصداع، ثم علقته في حزامي.

عدتُ إلى صلاح، فلفت انتباهي أن الشابة الفرنسية ما زالت تبكي بكاءً هستيريًا، فسألتُه:

- دي الشاهدة الفرنساوية؟

هزَّ رأسه مؤكدًا بينما يربت الشاب على كتفها ويترك لها مساحة لتستند بجبينها إلى صدره، ثم يضمها بذراعيه.

- ويطلع مين الحَبُّوب؟

- ده دودي.

رفعت حاجبَي من فرط الاستنكار حتى كادا أن يلتصقا بخط شعري الذي ما زال يتراجع في تخطيط استراتيجي لتنفيذ مشروع صلعي المبكر، وقلتُ:

- الله يخرب بيوتكم، اللي بيحضن الشاهدة ده مباحث!

- أيوه. ابن القردة خريج الفرير ومعاه تلات لغات بيشقط بيهم.

ناداه صلاح بأعلى صوته كأننا في مناسبة للم الشمل:

- تعالى يا دودي، نوح وصل!

ربت دودي على كتف الشاهدة مرة أخرى ثم فهمت من لغة جسده أنه يستأذنها للرحيل، فهزت رأسها بتفهم وهي تقول واحدة من الخمس كلمات الفرنسية التي أعرفها.

- ميرسي.

أخرج من جيبه سيجارة إلكترونية وسار نحونا بخطوات بطيئة تليق بتقديم بطل فيلم رومانسي مفتعل تتهافت عليه المراهقات. كان ينفث بخار سيجارته الكثيف إلى أعلى

وهو يعدل شعره الناعم الغزير الذي هبطت منه خصلة فوق جبينه ذي اللون الأسمر العجيب، لا أدري إن كان نتيجة حمَّام شمس مطوَّل على الشاطئ، أم أنه دهن نفسه بمنتج تسمير مجهول المصدر جعل لون بشرته يميل إلى البرتقالي اللامع.

وصل إلينا يسبقه عطره الذي يجب أن أعترف أنه أفضل عطر رجالي مر على أنفي، ثم قال بصوت جهوري يحمل القليل من حماس الشباب والكثير من العجرفة:

- إنت بقى نوح الألفي؟

أعتقد أن صلاح استشعر مثلي التكبر في صوت دودي، فقال لي:

- أصلي حكيتله عنك كتير.

تجاهلت محاولته لتلطيف الأمور، وقلتُ بنبرة أكثر عجرفة من نبرة دودي:

- وإنت بقى دودي؟

مد يده نحوي وهو يرفع أنفه الذي يبرز بمنتصف وجهه ثم ينتهي طرفه باستدارة ضخمة يشقها خط لا أفهم إن كان عِرقًا نافرًا، أم ندبة إثر جرح قديم وقال:

- فادي جاد.

صافحت كفه الطرية المقلمة أظفارها ثم استجوبته بنبرة جافة وأنا أهم أن أدون إجاباته:

- إنت اللي خدت أقوال الشاهدة؟

- هو في حد غيري بيعرف يتكلم فرانْسِيه؟!

هذا الاستفهام المجازي كشف لي شيئين عن الملازم المستجد، أولهما أنه ألدغ ينطق حرف الراء غينًا، وثانيهما أنه متعجرف عجرفة فرانكوفونية أطيق العمى ولا أطيقها.

تغاضيتُ عن سخافته واستأنفتُ أسئلتي:

- الشاهدة قالتلك شافت القاتل الساعة كام؟

- تمانية إلا تلات دقايق.

جريمة قتل طازجة. يبدو أنني لن أحتاج إلى ليمونتي الليلة.

- شافت إيه بالظبط؟

أغمض عينيه وأجابني متمتمًا كأنه يقرأ الإجابة من مؤخرة جفنيه:

- موظف في الكول سنتر اسمه علاء عاصم حامد حمودة مواليد ٥ يناير ١٩٩٩. عايز رقم بطاقته؟

قد يكون متعجرفًا، ولكنه على الأقل يملك ذاكرة فوتوغرافية لا شك أنها ستفيد تحقيقاتنا.

دوَّنتُ ما قاله ونفيتُ حاجتي إلى رقم بطاقة علاء، فأردف فادي وهو يفتح عينيه:

- علاء كان في المطبخ، وشه للشباك وموطي عشان يحط أكل للقطط وهو لابس سماعات «Beats» سودة و...

- مربيين قطط في الكول سنتر؟

- اللي فهمته إن المطبخ متوصل بسلم الخدم فبيحطوا أكل وميه ولبن على مدار اليوم وقطط المنطقة بيتجمعوا عندهم عشان ياكلوا.

دونت هذه الملحوظة ثم طلبت من فادي أن يستأنف أقوال الشاهدة.

- القاتل جِه من ورا علاء ضربه رصاصة في دماغه. الشاهدة صوتت وجيرانها اتلموا بس على ما فهموا سبب صويتها ووصلوا للعمارة اللي فيها الجريمة كان القاتل هرب.

- اتلموا عند أي مدخل؟

- مدخل القصر العيني. طلعوا الشقة بس ما عرفوش

يدخلوا لأن بابها إلكتروني ما بيفتحش غير من زرار عند مكتب الـ«receptionist» أو بـ«ID» الموظفين، فلفوا من سلم الخدم ودخلوا الشقة ما لقوش حد، فاكتفوا بإنهم يكلموا الإسعاف ويساعدوا بياتريس تبلغ النجدة.

علق صلاح الذي لا يطيق أن يطول حديث ليس طرفًا فيه:

- يعني يا أخي أبوها وأمها ضاقت بيهم الأسامي ما لقوش غير بطريص.

أظن أن فادي أصيب بجلطة صغيرة من شناعة نطق صلاح للاسم، فقرر أن يلعب دور زكريا الدرديري مدرس الرياضيات والفرنساوي ويصحح لصلاح نطقه.

بعد أربع محاولات فشل فيهم صلاح فشلًا ذريعًا في نطق الاسم بلكنة فرنسية ممتازة كلكنة فادي، فقدتُ صبري وقلتُ لهما:

- ما محروق اسمها! خلونا في اللي إحنا فيه. راجعتوا الكاميرات؟

أجابني صلاح:

- مصطفى مع رئيس اتحاد المُلاك بيشوف كاميرات العمارة.

أومأتُ برأسي لصلاح ثم التفتُّ إلى فادي أسأله:

- الشاهدة لحقت تشوف شكل مسدس القاتل؟

- ما خَدِتش بالها من نوعه، بس لاحظت إن فيه كاتم صوت.

- القاتل شافها؟

- لمبة مطبخها كانت محروقة فما شافهاش من الضلمة.

- وإيه مواصفات القاتل؟

- كان لابس بدلة بيضة طبية وجوانتي جلد ومغطي وشه بماسك إسود.

- يعني ما شافتش ملامحه؟

- يا برو بقولك كان مغطي وشه!

توقفت عن تدوين ملاحظاتي ورفعتُ نظري عن الدفتر ورمقته بحدة قائلًا بصوت خفيض:

- أنا مش برو! أنا بالنسبة لك حضرة الرائد نوح الألفي، وقائد موقع الجريمة. طول ما إنت في موقعي تحترم الرتبة الأعلى منك، وتلزم حدودك مع الشهود وتلبس لبس يليق بشغلنا مش طقم التنس ده. واضح؟

صحيح أن فادي أطول مني بما لا يقل عن خمسة عشر

سنتيمترًا، وعرض كتفيه الرياضيتين ضعف عرض كتفَي، ولكن نبرتي اللاذعة ونظراتي النارية صنعت لي هيبة جعلته ينزل عن برجه العاجي ويقول راضخًا:

- واضح يا حضرة الرائد.

- فين سجل حضور مسرح الجريمة؟

أجابني صلاح:

- مع وكيل النيابة.

قلتُ موجهًا أمري إلى فادي:

- هاتهولي.

تجهم كمراهق كدر أبوه صفوه، ثم استدار فرأيت قفاه العالي العريض الذي يغريك لصفعه.

بمجرد أن ابتعد عنا بما يكفي حتى لا يسمعنا، سألني صلاح:

- مالك يا نحنوحة قافش على الواد كده ليه؟ هو أنا استقبلتك كده في أول يوم لك؟

- ده إنت ورمت طحالي لحد من سنة فاتت يا صلاح. هم جايبين لنا القفا ده منين؟

- من شرطة السياحة، فبالراحة عليه لحد ما ياخد على الجو.

- الكلام ده في القسم مش في مسرح جريمة الغلطة فيه بفورة.

- طب روَّق. أنا هخلي عيني عليه لحد ما أشربه الشغلانة زي ما عملت معاك إنت ونسكويك.

لم أجد ردًّا يجابه جنون عظمة صلاح فأعدتُ فتح دفتري وأنا أسأله:

- البلاغ جالكم الساعة كام؟

- تمانية وشوية.

- وصلتوا هنا الساعة كام؟

- النجدة وصلت في ييجي عشر دقايق، وفادي حصلهم على طول، وأنا وصلت قبل ما أكلمك بكام دقيقة.

- كلمتوا صاحب الكول سنتر؟

- موبايله مقفول فبعت عسكري لبيته يستدعيه، والبواب كلملنا مالك شقة الكول سنتر وزمانه على وصول. شُفت كله تحت السيطرة إزاي؟ افرد لنا وشك بقى.

لمحتُ فادي يقترب منا وفي يده ورقة وقلم، فأشار إليه صلاح قائلًا:

- تعالى يا دودي اسمع التفاصيل اللي بنراجعها.

جاور صلاح ليسمعني وهو يزفر وعيناه تدوران في محجريهما بضجر بينما أسأل صلاح:

- عندنا كام جثة؟

- خمسة باين.

رفع فادي يده وقال موجهًا إليَّ سؤالًا ساخرًا:

- أجاوبك يا حضرة الرائد ولَّا ممنوع؟

أجابه صلاح:

- يا عم اتكلم إحنا مش في «الكيلاس».

أغلق جفنيه مرة أخرى وأخذ يعدد على أصابعه وهو يجيب:

- سِت جثث. جثة التيم ليدر في أسانسير الجناح الأيمن من العمارة. وخمس جثث جوا الشقة. تلاتة في الصالة، وواحد في الحمَّام، وواحد في المطبخ. أربعة منهم «agents» وواحدة «receptionist» اسمها بسنت أحمد عصام. عايز بطايقهم؟

صفق صلاح كما يصفق حشاشو الغرز في «أفلام المقاولات» وقال:

- الله أكبر عليك يا دودي! إيه الذاكرة البُمب دي! يا ريت عيالي البغال يحفظوا مذاكرتهم كده.

نفث فادي بخار سيجارته، ثم قال بغطرسة نابليون:

- ميرسي.

تجاهلت عبثهما وسألتهما:

- سلاح الجريمة موجود؟

رفع فادي كتفيه وأنزلهما فيما ينم عن جهله بالإجابة، فنظرت إلى صلاح فإذ به يحك شعره الذي تفوح منه رائحة الجِل الرخيص ويقول:

- الرجالة ما لقوش حاجة لحد دلوقتي.

- إنتو دخلتوا مسرح الجريمة الساعة كام؟

صمتا ولكن البلاهة التي تشع من أعينهما وشت لي عنهما.

أغلقتُ دفتري ووضعتُ طرفه فوق شفتَي حتى لا تفر مني إساءة يستحقها صلاح فأهدم كل قيم الاحترام التي تغنيتُ بها أمام فادي منذ قليل.

- بقالكم نص ساعة واصلين ولسه ما دخلتوش مسرح الجريمة يا حضرة الرائد؟!

- ما لحقناش يا قلب أخوك، أنا يَدوبك بسلم على عميد

النجدة ووكيل النيابة لقيت القطة بتجري بره الشقة، عكشتها وكلمت حسني وبلغتك ونزلت للناس اللي بتتزاحم قدام العمارة وبالمرة استجوبت البواب، وفادي انشغل مع مزمازيل بطريص.

همس له فادي مصححًا:

- بياتريس.

لم أعلق، اكتفيتُ بزم شفتَي والنظر إلى صلاح شزرًا، فقال:

- لأ! وسَّع خلقك علينا يا قلب أخوك، الموقع متأمن والأدلة محفوظة والنيابة موجودة ورجالة الطب الشرعي شغالين فهتفرق في إيه طلعنا بعد نص ساعة ولا ساعتين، الضحايا كده كده ميتين والقاتل هربان. دي قضية صغيرة عليَّ يا جدعان، أنا كده حوت مزنوق في ترعة.

- لقينا ست جثث يا صلاح وبتقولي قضية صغيرة؟

- على الأقل لقيتوا الجثث. أنا بقالي شهرين بدوَّر على تلات فتيات ليل مختفين من قصر النيل ومش لاقي أثر لضفر واحدة فيهم يا نحنوحة، لحد ما خلاص هتجنن. حس بأخوك يا جدع.

أخذت نفسًا عميقًا ثم انسحبتُ من أمامه في صمت.

لو بقيتُ أكثر من ذلك فسأفقد حريتي بسبب جريمة سأرتكبها في صلاح لأحمي البشرية من لامبالاته.

٣

هربت من غباء صلاح وعجرفة فادي بأن دخلت إلى «نور ومهند ماركت» لأخذ أقوال البائع.

وجدت مَن استنتجت أنه صاحب السوبر ماركت في الداخل، ولكنه لم يعد شابًّا ثلاثينيًّا مثل صورته على اللافتة، بل صار رجلًا خمسينيًّا لم يبخل عليه الدهر بأي من أعراض الكهولة.

كان مسترخيًا على كرسي جلدي متهالك، وأمامه طاولة كاشير عليها ماكينة فيزا وآلة حاسبة وكمبيوتر شاشته متوسطة الحجم، يخرج من سماعتيه الكثير من «هيك» و«بيك» و«خانوم» فخمنتُ أنه يشاهد مسلسلًا تركيًّا مدبلجًا باللهجة السورية.

وقفتُ أمام الكهل ولكنه لم ينتبه لوجودي، أو ربما انتبه ولم يبالِ، فقد كان منهمكًا في فعلين لا ثالث

لهما، قزقزة اللب السوبر بنهم جنوني، ومتابعة أحداث المسلسل.

تصنعتُ السعال حتى يلتفت إليَّ، فتأفف وهو يضغط بأصابعه الناتئة عظامها على فأرة الجهاز ذات السلك العاري، ليوقف المسلسل من دون أن يكف عن قزقزة اللب وبصق قشره في كيس أبيض على حجره.

- اتفضل!

- الرائد نوح الألفي من قسم قصر النيل.

- إنت اللي هتحاسب على الحاجة؟

- حاجة إيه؟

- علبة السجاير والكانزاية والميه وكيلو اللانشون حلواني بالزتون اللي زميلك اللي لابس قميص شبه دمعة الفاصوليا ده خدهم وقالي هبعت لك العسكري يحاسبك.

اللعنة عليك يا صلاح!

- هخليه يحاسبك. أنا جَاي أشوف تسجيل الكاميرا، وأسألك لو شُفت حاجة غريبة.

- ما غريب إلا الشيطان. زميلك سألني عن الكاميرا قلت

له نور هترجع من الكورس وهخليها تفتح لكم التسجيل من على اللابتوب بتاعها.

- إحنا مستعجلين على الفيديوهات لأن...

- حساب زميلك مية واتناشر جنيه وخمسة وسبعين قرش.

كان نوح العشريني الأعزب لينهر أبو نور ومهند على عدم تعاونه مع السلطات، ولكن نوح الثلاثيني الذي على وشك أن يتزوج ويصبح مسؤولًا عن بيت وزوجة، كان أكثر صبرًا وحكمة.

أخرجت محفظتي وناولت أبو نور ومهند بطاقتي البنكية وأنا أسب أسلاف صلاح.

سددت دين زميلي الوغد، ثم استعدتُ البطاقة وأبو نور يقول بفتور:

- نص ساعة ونور ترجع وتجهز لكم الفيديو. شرفت.

ثم شغل المسلسل التركي المدبلج مرة أخرى.

* * *

رنَّ هاتفي في أثناء خروجي من السوبر ماركت، فكان المتصل جدتي.

- أيوه يا تيتة.

- حاضر يا رايقة.

- يا رب تروق روقتي. مش هعطلك، ارمي اللي حصل ورا ضهرك، وما تخليش حاجة تشغلك عن واجبك. خلي بالك من نفسك. لا إله إلا الله.

- محمد رسول الله.

* * *

عدتُ إلى المدخل الخلفي باحثًا عن صلاح فلم أجده، ولكني سمعتُ صوته آتيًا من الممر الضيق الذي تتقابل عنده نوافذ مطابخ عمارة سيف الدين مع عمارة «كونياك» كما يدعوها صلاح.

رأيتُ إعلان «كونياك أوتار» يحتل الجانب الأيمن من العمارة التي تسكنها الشاهدة الفرنسية. كان إعلانًا عتيقًا وباهتًا إلى درجة أن تفاصيله شبه اختفت، ولم يسعفني ظلام الممر الذي يحاول عمود إنارة يتيم ذو مصباح مرتعش محاربته لأتبين ملامحه.

نصف الممر كان مصلى بسيطًا، والنصف الآخر كان فارغًا إلا من دراجة نارية صينية حمراء تتكئ على الحائط، فحرصتُ على تسجيل ماركتها وموديلها ورقم لوحاتها في دفتري لأتحرى عن صاحبها.

في نهاية الممر، وجدتُ صلاح يأخذ من صيدناوي الكمامات والقفازات وأغطية الشعر والقدمين استعدادًا لدخول مسرح الجريمة، وفادي يودع بياتريس.

سألتُ صلاح:

- تعرف الموتوسيكل ده بتاع مين؟

- هراجعلك لوحته مع وليد.

- وليد اتنقل من المرور، راح مباحث المعادي بقاله كام شهر. شوف نادر الصاوي.

أعطاني نصيبي من الملابس الواقية، ارتديتها وأنا أضيف بصوت خفيض حتى لا يصل إلى فادي أو إلى أي عسكري يمر بجوارنا:

- إيدك على مية واتناشر جنيه وخمسة وسبعين قرش.

- بتوع إيه يا نحنوحة؟

- بتوع سجايرك واللانشون يا نِن عين نحنوحة.

- الله! مش كنت بأكل القطة المسكينة اللي...

- أكلتها كيلو لانشون يا فاجر!

- ما أنا كمان كنت جعان يا جدع!

مد يده في جيبه وأخرج كارت دعوة ألوانه تؤكد على أن مصممه مصاب بعمى ألوان، أعطاه لي كأنه يهبني حسنة.

تفقدت الكارت فأدركت أنه دعوة إلى زفاف صباح ورؤوف.

أحب النهايات السعيدة، صباح ورؤوف يليقان ببعضهما، فكلاهما عطوف، وكلاهما تعرض لصدمة نفسية شنيعة، وكلاهما خانه شريك حياته، وساعد كلاهما الآخر على التعافي من تلك الفاجعة العائلية التي أصابتهما العام الماضي.

لا شك أن زواجهما هو الخاتمة المثالية لتخطي ما مرا به، ولكني لم أملك سوى أن أتساءل: هل تخليا عن فكرة الإنجاب التي كانت سبب تلك المأساة الأسرية من الأساس، واكتفيا بأن يؤنس كل منهما الآخر؟ فعلى ما أذكر أن كليهما كان عقيمًا.

وضعت الكارت في جيبي من دون أن أشارك صلاح أفكاري المتطفلة الجلفة وقلتُ:

- ألف مبروك يا سيدي. فين بقى فلوسي؟

ضحك وربت على ظهري وهو يعانقني بعنف ويقول:

- الله يبارك فيك يا قلب أخوك. عارف لو ما جِتش إنت والواد نسكويك، يومكم مدوحس!

وددتُ لو أخبره أن تجاهله لحقي لن يثنيني عن التمسك به، ولكن اقتراب فادي منا بنظرات دهشة، وهو يراقبنا نرتدي الملابس الواقية جعلني أؤجل مطلبي.

- أديني في أجواء تشرنوبل! ما كنتش أعرف إن المباحث بيلبسوا زي بتوع الطب الشرعي. عمري ما شُفت في الأفلام إن...

قطع تعليقه الأخير حبل الصبر الذي كنتُ أتشبث به، فسألته:

- متأكد إنك خريج أكاديمية الشرطة يا فادي؟

- وبتقدير عالي كمان.

قالها بابتسامة سمجة، ثم أعاد توجيه حديثه إلى صلاح:

- أنا مش هلبس جوانتي. اللاتكس بيجيبلي حساسية.

قلت له بفتور:

- لو مش هتلبس جوانتي مش هتدخل.

- مش هلمس حاجة. هخلي إيدي في جيبي كده أهو.

وضع يديه في جيبَي سرواله القصير بتراخٍ وابتسم ببرود.

قلتُ لنفسي: لا يجوز أن تضرب الملازم الجديد يا نوح. لو تعديت على زميلك ستحال إلى المحاكمة العسكرية وتخسر وظيفتك!

أنقذني صلاح بقوله:

- نوح بينصحك لمصلحتك يا دودي. لو طلعت فوق واتشنكلت في طرف سجادة ولا بوز ترابيزة لا سمح الله، إيه أول حاجة هتعملها؟ مش هتحاول تسند نفسك بإيدك؟ مش كده هتبقى سيبت بصماتك ولوثت مسرح الجريمة؟

هز رأسه مستسلمًا وأخذ من صلاح الملابس، وبدأ يلبسها ببرود ثم دخلنا العمارة.

* * *

انقبض قلبي من رحابة البهو الذي قد تتيه بين زواياه قبيلة بأفرادها ودوابها من دون أثر.

ليس غريبًا أن يهرب القاتل بسهولة من هذه العمارة التي تتراص بداخلها أعمدة شاهقة مثل المعابد الفرعونية، فهي ممتازة للاختباء خلفها في حالة تجمهر السكان ثم التسلل بخفة إلى الخارج.

يتفرع من منتصف البهو الفسيح جناحان سكنيان منفصلان، كل منهما يحوي ست شقق يخدمها سلم ومصعد ومنور يخفي بداخله سلم الخدم الحلزوني الضيق.

لوجيستيًّا، العمارة مثالية لتنفيذ جريمة قتل جماعي ثم

الهرب من دون أن ينتبه لك إنسان، إلا أن كاميرتي المراقبة اللتين تتوسطان البهو، وتطل واحدة على المدخل الرئيسي والأخرى على المدخل الخلفي، كانتا لتشكلان عقبة أمام هروب القاتل من دون أن يترك أثرًا خلفه.

وقفتُ عند سلم خدم الجناح الأيمن، أنظر إلى أعلى وأراقب كيف يلتف الدرابزين الأسود حول نفسه كثعبان خبيث وأنا أفكر، بما أن هناك جثة في المصعد، فالحل الوحيد للوصول إلى الطابق الثاني حيث شقة الكول ستتر هو بفعل أكثر شيء أبغضه بعد زوج أمي، صعود السلم.



بوصولنا إلى الطابق الثاني، كان قلبي قد صعد إلى حلقي من فرط الجهد، اللعنة على التدخين!

أما فادي الرياضي اللعين فكان يصعد سلمتين معًا وهو يثرثر بأنفاس ثابتة من دون أن يندى جبينه ولو بقطرة عرق واحدة.

وقفتُ أروض أنفاسي المضطربة، بينما ألقى صلاح بنفسه على السلم الحلزوني وهو يلهث ويمسح عرق جبينه بكمه ويقول:

- اسبقوني إنتو. أنا محتاج ولا ربع ساعة عشان أعرف أقف.

وافقته، وبمجرد أن انتظمت أنفاسي، توجهتُ مع فادي إلى باب مطبخ الشقة.

وقفنا عند عتبة الباب فرأينا رجال الطب الشرعي يجهزون معداتهم ويراجعون أدواتهم، ويناقشون بعض الفنيات ويلقون نكاتًا لا يفهمها غير المهووسين بالعلوم أمثالهم.

وقف فادي يحملق في حركتهم المتعجلة، وفي بدلاتهم البيضاء الموحدة ببلاهة طفل يزور السيرك للمرة الأولى، فهمستُ إليه:

- ما تلمسش حاجة، وما تتحركش من غيري. لو حاجة لفتت انتباهك قولي. مش عايزهم يحسوا إنك مستجد.

هزَّ رأسه من دون تعليق، فاقتربتُ منهم ألقي عليهم السلام وأقدم إليهم فادي، ثم سألت إيهاب مساعد حسني:

- حسني جوا؟

- آه. بيحدد منطقة التطهير، والعميد بتاع النجدة مستني حد منكم عشان يديه تقرير المستجيب الأول، ووكيل النيابة شايط عالآخر عشان اتأخرتوا على الحضور في مسرح الجريمة.

منك لله يا صلاح!

- هتبدأوا إمتى؟

- لما الشاب خالد يشتغل.

قال فادي عبقري زمانه:

- بتحبوا تشتغلوا على أغنية إيه للشاب خالد؟

جعل هذا التعليق صدى ضحكات الرجال الذين تفوح منهم رائحة الكحول المعقم، واللاتكس، وبودرة الكربون، يتردد في سلم الخدم.

لم يفهم فادي ما المضحك في تعليقه، فسحبته من مرفقه ونزلنا بضعة سلالم بعيدًا عن نقطة تجمعهم، حتى أهمس إليه من دون أن يسمعونا:

- هو ده اللي مش هتبينلهم إنك مستجد؟! الشاب خالد ده المصور الجنائي بتاعنا.

- طب حط نفسك مكاني. إنت إيه اللي هييجي في بالك لما أقولك إني مستني الشاب خالد يشتغل؟

- مش لازم كل حاجة تيجي في بالك تقولها بصوت عالي. مش عايز إحراج قدام الطب الشرعي.

- طب معلش إحنا مستنيين الفوتوجرافر ليه؟

- فوتوجرافر إيه يا فادي هو إحنا مستنيين حسام أنتيكا؟ بقولك المصور الجنائي اللي بيصور الجثث!

- Whatever يعني، ليه ما نشتغلش قبله؟

- عشان ما نغيرش حاجة في موقع الجريمة قبل ما يصورها ويثبت حالتها.

- أوكيه. أهو كده فهمت. هيجرى حاجة لو كلمتني بهدوء زي صلاح؟

تركني وعاد إلى الوقوف عند عتبة باب المطبخ المفتوح الذي تكثر به القشور والبقع، على يساره رجلان في كامل ملابسهما الواقية منغمسان في تبادل تفاصيل يبدو أنها تخص اكتشاف الجريمة وتلقي البلاغ عنها.

خمنت أن أحدهما وكيل النيابة الذي ذكره صلاح، لأنه حقًّا يشبه محمد رمضان في مسلسل الأسطورة. شاب ثلاثيني ربما يكبرني بعامين أو ثلاثة. طويل وعريض المنكبين، بشرته داكنة، وشفتاه غامقتان بارزتان، وأنفه مفلطح، وله لحية سوداء ثقيلة عوضه الله بكثافتها عن شعره الذي هجر رأسه، وتركه أصلع يلمع أسفل ضوء مدخل الشقة، ولديه شامة داكنة عند ذقنه.

أما الرجل الآخر فتوقعت أنه عميد النجدة، كان في

منتصف الأربعينيات من عمره أو ربما أواخرها، بشرته خمرية وعوده هزيل وملامحه مرهقة. بدا مألوفًا لي للغاية، ربما تقاطع دربانا في موقع جريمة سابق بحكم تداخل عمل النجدة مع عمل المباحث كما الوضع الآن.

وقفت بجوار فادي وأومأت برأسي نحو الرجلين فيما بدا تحية صامتة، فابتسم إليَّ العميد بود، ولكن وكيل النيابة الشاب اكتفى بأن هز رأسه هزة مقتضبة، ثم استأنف حديثه الجاد.

همست لفادي بهدوء كما طلب وأنا آمل أن يخيب ظنوني ويبهرني بأنه يملك حدسًا بوليسيًّا ممتازًا:

- لاحظت حاجة؟

نظر حوله يتأمل المكان.

كنا نقف على عتبة مطبخ يفتقر إلى لمسة ربة منزل أصيلة، فهو يحوي بضعة أكواب وأدوات كهربائية بسيطة تكفي لإعداد مشروبات ساخنة لا أكثر، وبه خزانة خشبية رديئة من النوع الذي يباع في «IKEA» درفتها مخلوعة، فرأيت أن بداخلها قارورات مياه وأكياس طعام القطط.

يقابل الخزانة حوض فيه بقايا قماش محترق، وصنبوره مفتوح.

دونتُ هذا في دفتري، ثم تركت نظري يقع على أهم الموجودات في المطبخ، الجثة.

كان علاء العشريني المغدور به، ملقى على وجهه ويده قابضة على كيس طعام القطط الذي تبعثر محتواه على الأرض، وتغطي أذنيه سماعات ماركة «Beats» سلكها ملقى بجواره وغير متصل بأي جهاز.

يحيط عنقه حامل هوية موظفين برتقالي فاقع من النايلون، وتتناثر حول رأسه الأصلع أنسجة دقيقة من مخه، وقد جفت حواف بركة دمائه السائلة من موضع الرصاصة القاتلة، بينما بقي وسطها رطبًا كما هو، مما يؤكد أن الجريمة مر عليها أقل من ساعة.

دسست يدَي في جيبي وملتُ عليه بحذر لأمعن النظر في موضع الرصاصة، وما خلفته في رأسه من اسوداد وتمزق نجمي ونمش بارودي، يؤكد أن القاتل أصابه من المسافة صفر بسلاح مششخن محترف وليس محلي الصنع، أي أننا لو وجدنا فارغ الرصاصة قد نصل إلى رقمه المتسلسل، ومنه إلى أوراق تسجيل ملكية السلاح، هذا إن كان مالكه سجله رسميًّا.

نقر فادي كتفي، فاعتدلتُ في وقفتي ورأيت إصبعه يرتعش، ويشير بنظرات مذعورة إلى جثة ثانية على بعد نصف متر من علاء يبدو أنه لم ينتبه لوجودها إلا الآن.

لم تكن جثة زميل من زملاء علاء الخمسة الذين انتقلوا إلى رحمة الله الليلة، بل جثة قط أسود يملأ صدره شعر أبيض جعله يبدو كأنه يرتدي توكسيدو.

هذا كل ما استطعت وصفه من ملامح القط، فالحيوان المسكين مات ميتة أبشع من ميتة علاء، وكان من الضروري أن أصفها بدقة في دفتري.

- **رأس القط مهشم بفعل ضغط عنيف متكرر حتى تساوى بالأرض تقريبًا.**
- **مخالب القائمتين الأماميتين ملطخة بالدماء.**
- **ما الدافع وراء قتل قط بهذه البشاعة؟ أعتقد أنه قُتل في فورة غضب. ربما هاجم القط القاتل فقام القاتل بتهشيم رأسه (بقدمه أم بأداة ثقيلة؟) مما يرجح أن الدماء على مخالب قائمتيه الأماميتين تخص القاتل (سنحتاج إلى تأكيد الطب الشرعي).**
- **الأرض حوله نظيفة، لا أثر لدمه أو أنسجته إثر تهشم الرأس.**

- على الأغلب القاتل نظف حول القط، وهذا قد يفسر الصنبور المفتوح وبقايا القماش المحروق (سنحتاج إلى تأكيد الطب الشرعي). القاتل مسح الدم من تلك المنطقة فقط من دون تنظيف دم علاء، لماذا؟
- توجد بقعة لزجة على طرف ذيل القط تلمع تحت ضوء النيون للمطبخ. أفترض أنها بقعة دم (سنحتاج إلى تأكيد الطب الشرعي). ومن وضع الذيل بعيدًا عن دم علاء، أخمن أن تلك البقعة هي دم القاتل وأول دليل مادي ضده و...

توقفت عن الكتابة، فقد جفلت من صوت صلاح الذي صرخ بجوار أذني والدموع تفر من عينيه الضيقتين:

- ليه! ليه القطة! حسبي الله ونعم الوكيل! يا حسني.

قبل أن أعلق كان قد تركنا ودخل مسرح الجريمة باحثًا عن حسني، والجميع إما يستعجبون أو يسخرون من رد فعله المبالغ فيه.

إنها المرة الأولى التي أرى فيها دموعه، وأجد نفسي أصفه بآخر صفة قد تخطر على بالي وأنا أفكر في صلاح، مرهف الحس.

كنت سأتبعه لأهدئه ولكني سمعت الفنيين والأطباء خارج المطبخ يرحبون بالشخصية الأقرب إلى قلبي من بين أعضاء فريق الطب الشرعي كافة، المصور الجنائي شهاب خالد، أو كما ندعوه كلنا «الشاب خالد».

ابتعدتُ بضع خطوات عن عتبة المطبخ، فوجدته يقف وسط زملائه مبتسمًا ابتسامته الهادئة المعتادة.

للشاب خالد طلة سينمائية تنتمي إلى العصر الذهبي للشاشة الفضية، فهو أربعيني وسيم، صاحب رائحة عطرة منعشة، وشعره غزير لامع مثل رشدي أباظة.

مع أن عمله الأساسي هو الجثث والدم والأدلة الجنائية، فإن للشاب خالد روح فنان، فهو يحترف التصوير الفني والمعماري والرسم إلى درجة أنه يعطي دروسًا للأطفال في بعض جاليريهات المعادي والزمالك ومصر الجديدة.

أطل علينا برائحة عطر صيفي منعش، وقميص مشجر يليق برجل يقضي إجازته على شواطئ هافانا، لا بمصور قتيل. وبمسبحة حجر عين النمر التي لا يخلعها عن رقبته منذ عشر سنوات. على كتفه حقيبة ظهر جلدية مستوردة فيها كل مستلزمات التصوير الجنائي وكروت الترقيم وأدوات القياس، وعلى صدره تتدلى كاميرته الكوداك المطابقة للمعايير الجنائية، ويرتطم حزامها الجلدي بطرف سلسلة

ذهبية رفيعة يخفي دلايتها أسفل قميصه، وعلى رسغه حظاظات ملونة.

على رأسه سماعة «JBL» ضخمة لونها أحمر، إذا اقتربت منه بما يكفي ستكتشف أنها تضخ في أذنيه إحدى أغاني الشاب خالد التي يدندنها ويردد كلماتها بشغف فنان مرهف الحس وهو يصور الجثث.

صافحني بحميميته المعهودة، وتبادلنا السلام والسؤال عن الحال، ثم انتشل من حقيبته كيسًا ضاغطًا أخرج منه كمامته، ليكمل بها زيه الواقي وهو يسألني:

- إيه الكلام؟

- سِت جثث بشرية، وقط.

- إنت المستجيب الأول؟

- لأ، عميد النجدة.

كدت ألتفت لأري الشاب خالد أين يقف العميد، ولكني وجدته يقبل علينا بابتسامة تكشف عن أسنان مبيضة بياضًا صناعيًّا، وهو يقول بصوت رقيق:

- مساء الخير، أنا العميد نادي الناجي من النجدة.

بسط كفه المغطاة بالقفاز الطبي وهو يقدم نفسه إلينا،

فسبقني الشاب خالد وصافحه مقدمًا نفسه وكذلك فعلت قائلًا:

- الرائد نوح الألفي من مباحث قصر النيل.

بمجرد أن قلتُ اسمي أبقى العميد يدي في كفه وظل ساكنًا لثلاث أو أربع ثوانٍ يحرك عينيه يمينًا ويسارًا كبندول الساعة، ويحك طابع الحسن الذي يختم ذقنه الدقيق حتى سألني:

- إنت تقرب للمرحوم يحيى الألفي؟

- والدي.

ترك يدي وصفق بخفة قائلًا بنبرة مليئة بالحنان:

- مش ممكن! أبوك كان أستاذي، استقبلني أول ما تخرجت واشتغلنا مع بعض لحد ما...

أمسك عن الكلام، ففهمت أنه أراد الإشارة إلى أن عملهما انتهى باستشهاد أبي.

هز رأسه كأنه يمحو ذكرى ما عن ذهنه، ثم سألني مغيرًا دفة الحديث:

- دكتورة سعاد عاملة إيه؟ لسه بتعمل لكم عصير ليمون باللبن؟

دهشت من تذكره للعصير المميز الذي تشتهر به أمي، ثم أشفقت على نفسي لأنني لا أعرف كيف أجيب عن سؤاله. لم تبادلني أمي ولو كلمة واحدة منذ قرابة العام والنصف، لأنني لكمتُ زوجها «الدكتور فازلين» لكمتين مبرحتين في مصحته النفسية وأمام موظفيه.

حتى حين رأيتها في عزاء ابنة خالتي، حرصتْ على التملص من الحديث معي.

بالطبع لن أذكر عقدة الأمومة المسيطرة عليَّ منذ طفولتي لهذا الغريب، حتى وإن كان صديقًا قديمًا لأبي. اخترتُ أن أفعل ما أجيد فعله دائمًا أمام الغرباء، التظاهر بأنني فرد من عائلة سوية.

- ماما بخير الحمد لله.

- أرجوك توصلها سلامي.

تفقد ساعته ثم قال لنا:

- أنا يدوبك أروَّح، هتحتاجوا مني حاجة؟

- هحتاج أراجع معاك تفاصيل المعاينة الأولية لمسرح الجريمة. مش هاخد من وقتك كتير.

- أنا سلمت التقارير كلها لوكيل النيابة. يا رياض باشا!

التفت خلفه ينادي وكيل النيابة، الذي ينظر بشيء من التربص إلى فادي المحدق تحديقًا مريبًا إلى جثة القط الأسود المشوهة.

انتبه وكيل النيابة للنداء فاقترب منا يقدمه لنا العميد نادي:

- وكيل النيابة رياض السعيد، أعتقد اشتغلتوا سوا قبل كده؟

لا أظن ذلك، ما كنتُ لأنسى رجلًا بهذا الطول وهذا العرض وهذا السمار إن كنت التقيته من قبل، ولكني لم أرد أن أحرجه، فاكتفيتُ بمصافحة رياض الذي بدت كفي في راحته الرحبة ككف طفل في الروضة.

فعل الشاب خالد الأمر نفسه، ثم أعاد الحديث إلى مساره وهو يقول للوكيل والعميد:

- نوح هيراجع المعلومات اللي عندكم، وأنا ضروري أسمع ملاحظات العميد قبل ما يمشي عشان أرقم الأدلة قبل تصويرها. ده مناسب لحضراتكم؟

التفت رياض إلى العميد يسأله:

- ده مناسب لحضرتك يا سيادة العميد؟

دس العميد يديه في جيبيه، وقال بابتسامة بدت لي مرحبة، ولكنها لم تخفِ تعبيراته المجهدة:

- مناسب.

شكرناه، ثم همَّ الشاب خالد أن يتحرك معه ليدخلا المطبخ، فاستوقفتهما قائلًا:

- قبل ما نبدأ المعاينة هنحتاج نصور جثة القط عشان ديله عليه دليل أعتقد هيكون محوري.

قبل أن يستفسر أي منهما عن الدليل الذي أقصده، انتبهنا إلى أن حسني بدأ يصيح من داخل المطبخ بغضب عارم:

- الله يخرب بيتك!

تزاحم رجال الطب الشرعي عند مدخل المطبخ، فدفعت هذا، ووكزتُ ذاك، حتى أتفقد سبب هذه الجلبة، ويا ليتني لم أتبين السبب!

هكذا كان المشهد الكارثي: فادي يقف في المكان الذي تركته عنده، وقد أسدل كمامته أسفل ذقنه ليتقيأ بعنف، كأنه سيلفظ أحشاءه في المطبخ، أو للدقة، فوق ذيل القط.

٤

لا يخبرونك أن القتيل إذا لم يقضِ حاجته قبيل موته مباشرة، سيفرغ جسمه ما في أمعائه، لأنه ببساطة ميت، أي أنه فَقَد السيطرة على مثانته.

إنها حقيقة بيولوجية لا داعي لتجميلها، وواقع لا مفر منه في أي موقع جريمة.

بمرور السنوات، تكيفت مع رائحة الموت وتعوَّد أنفي عبقَ الدماء والعرق والبول والغائط وتعفن الجثث، ولكن أنف الملازم المستجد لم يتقبل ما شمه، وعينه لم تمرر منظر الجثتين الداميتين مرور الكرام، فأفرغ ما في معدته ملوثًا موقع الجريمة.

يبدو أن ما فعله فادي صدم رياض، فأخذ يحدق إليه باستنكار، بينما وضع نادي يده على فمه في محاولة لمنع نفسه من القهقهة والسخرية من هذا التصرف الطفولي عديم المهنية.

على عكس هدوء رياض ونادي، لم يتقبل حسني المستكاوي الوضع بمجرد نظرة استنكارية أو ضحكة ساخرة، ثارت ثائرته إلى درجة أنني استشعرتُ أنه لن يهدأ إلا إذا وضع فادي في حافظة الموتى السوداء، وجعل منه عبرة لمن لا يعتبر.

في محاولة مني لتدارك الأمر والسيطرة على أعصاب الجميع، أمرت فادي بالخروج من موقع الجريمة، فأخذه صلاح من يده كما يفعل الأب مع ابنه المشاكس الذي أحرجه أمام الضيوف ونزلا السلم، بينما انتقلتُ والعميد نادي والشاب خالد ورياض مع حسني إلى المدخل الرئيسي للشقة.

وقفنا في نصف دائرة أمام باب الشقة الذي تجاوره كلمة «إلقُف» مكتوبة بالفرانكو، وتحتها شعار الكول سنتر:

ارمي مشوارك، وإحنا هنلقفه

بمجرد أن رفعت عينَي عن الشعار ونظرت إليهم، شعرتُ أنهم قرروا بشكل غير معلن لومي على فعلة فادي.

ما أكد شعوري هذا هو حدة تحديق رياض بي كأنني مَن تقيأ على ذيل القط، بينما تردد صدى صياح حسني في العمارة وهو يطوِّح يديه يمينًا ويسارًا ثم يرفع سبابته نحوي قائلًا:

- أنا مش هسكت على العك ده، يا نوح!

- صلي على النبي. ظابط جديد وغِلِط.

- غلِط؟ طب احضرنا يا رياض بيه، ده يصح؟

- لا ما يصحش.

قالها بفتور من دون أن يرفع نظره عني، فاستأنف حسني تهديداته:

- أنا هرفق الواقعة في تقريري، وهكتب إنكم مسؤولين عن تلويث مسرح الجريمة.

- ماشي. معاك قلم ولا أجيبلك؟

استشاط حسني غضبًا من تقزيمي لتهديداته وهمَّ أن ينطق بشيء، ولكن الشاب خالد وقف بيننا، وقال بتؤدة لا تناسب الجو العام:

- يا شباب روّقوا! هتتخانقوا قدامي ولا إيه؟

زم حسني شفتيه وأمسك عن الكلام، وكذلك فعلتُ.

أعطيناه حقه علينا من احترام لأنه أقدمنا بالمهنة وأكبرنا عمرًا، وأنهينا تلك المشادة بهزة رأس وصمت مطول كسره هو بأن ربَّت على كتف كلٍّ منا بيد وقال بنبرة مشجعة:

- روح شوف زميلك يا نوح على ما أخلص المعاينة مع رياض ونادي باشا.

* * *

سألتُ العسكري الواقف عند باب الشقة ليمنع دخول المتطفلين إلى موقع الجريمة، عن مكان صلاح وفادي، فأخبرني أنهما في الطابق الأول.

نزلتُ السلالم وبمجرد وصولي إلى الطابق المنشود، سمعتُ صلاح يعاتب فادي:

- يا جدع على الأقل كنت رَجَّعت برا الشقة. خليت رقبتي قد السمسمة قدام نوح.

- أعمل إيه، ما لحقتش أمسك نفسي!

وجدتهما جالسين على السلمة المقابلة لشقة بابها الضخم مغلق، وفوق إفريزه لافتة سوداء قديمة مكتوب عليها يدويًّا بخط خطاط عربي أصيل يعلن أنها عيادة طبيب أمراض باطنية.

وقفت أمامهما مستندًا إلى درابزين السلم وأنا أراقب وجه فادي بعد أن بلل العرق جبينه، وتخلت ملامحه القوقازية عن عجرفتها.

كانت حالته مثيرة للشفقة، فاستخدمت لغة الرجال العالمية لمؤازرة بعضهم، عرضتُ عليه سيجارة من سجائري.

نظر إلى علبتي نظرة تشي بأن سجائر الوينستون الزرقاء لا ترتقي إلى مستواه الرفيع ثم قال:

- مش بدخن غير سجايري أو الفيب.

أخرج من جيبه علبة سجائر مارلبورو توت عرضها عليَّ، فقلتُ له:

- مليش في النيكوتين أبو طَعم.

أعاد فادي علبته إلى جيبه وأخرج سيجارته الإلكترونية. زفر بخارها الذي يحمل رائحة سُكَّرية تشبه حلوى غزل البنات، ثم خرجت منها شرارة لسعت كفه، فصاح وأخذ يسب السيجارة ويتمتم:

- طبعًا باظت زي ما كل حاجة في حياتي بتبوظ من ساعة ما نقلوني للمدينة النحس دي!

سألته:

- كنت فين قبل ما تيجي هنا؟

- شرم.

- وإيه اللي رماك على المُر؟

- بابا. اتجوزت من وراه فقرر يحدفني الحدفة الزفت دي عشان يعلمني الأدب.

ما أعجب الدنيا، ما أعيشه يوميًّا وأسميه حياة، بالنسبة إلى فادي يُعد عقابًا رادعًا!

وضع صلاح يده على كتف فادي وقال بنبرة خبيثة:

- بلا شرم بلا بَرم. سيب لي نفسك إنت يا دودي وأنا هوريك الوش الفرفوش للقاهرة. الحياة هنا ميت فل وعشرة.

- الحياة هنا غم ونكد. چولي بعد تلات شهور جواز قالتلي وأنا إيه اللي يخليني أسيب الشمس والبحر وأعيش في الكلاكسات والزحمة. لا راعت طلوع عيني عشان آخد موافقة من الداخلية إني أتجوز أجنبية، ولا قدرت إني قعدت طول جوازنا مش ببص لواحدة غيرها.

لا أدري ما الذي أثار تعجبي أكثر في هذه القصة، أن زوجة فادي فضلت الشاطئ عليه، أم أنه يرى في إخلاصه لها لمدة ثلاثة أشهر فقط ما يجعله يستحق جائزة الزوج المثالي.

علق صلاح وهو يمط شفتيه متأثرًا:

- سِت ناقصة بصحيح، أهو ده اللي بناخده من أوروبا، نسوان بتاخد قرارات!

أعاد فادي سيجارته الإلكترونية إلى جيبه، ثم قال وهو يضغط على رأسه:

- أنا مستحيل أكمل في الشغلانة دي. أنا مش بتاع جثث. أنا آخري سرقة، معاكسة، حادث تصادم. إنما أشوف إنسان وحيوان مقتولين بالبشاعة دي والمفروض أقف أكتب ملاحظات كأني بتفرج على لوحة في متحف، أنا كده هيجيلي تروما!

قال صلاح الجهبذ:

- ما تقلقش يا دودي، طول ما إنت لابس كمامة مش هيجيلك تروما ولا أي مرض.

رأيت تعبيرات فادي تستنكر جهل صلاح، فقلتُ قبل أن يستغرق في محاولات عبثية لشرح مصطلح «تروما»:

- بس إيه يا صلاح باشا المشاعر المرهفة دي كلها. من إمتى وإنت بتحب القطط؟

- من بعد ما سبت سماح وأنا مليش ونيس غير سِت أبوها ونحمده وشيخ البلد وعنتيرة.

دس يده في جيب سرواله الذي بهت لونه وتفَتَّلت خياطته من فرط استهلاكه وأخرج هاتفه.

أرانا عدة صور كان آخرها وهو يفترش الأرض بفانلته البيضاء وسرواله القصير المرسوم عليه شفاه حمراء، تجاوره شيشة مبسمها في فمه ويعانق بذراعيه أربع قطط بلدي يضمها إلى صدره.

أخذ يشير لكل قطة وهو يحكي لنا حكايتها:

- المشمشي الحليوة ده عنتيرة، لقيته في الشارع حتة لحمة حمرا وعيل شمام رامي مية نار على وركه. عالجته وربيته لحد ما بقى شحط ومحبل قطط المنطقة كلها. الإسود المدملك ده شيخ البلد، ده بقى اللي نَدَه النداهة، مفيش فار ولا عرسة ولا حتى دبانة تستجري تدخل بيتي في وجوده. المزة البيضة الصغيرة تبقى سِت أبوها. ولاد الحرام سَموا أمها، فآويتها هي وأختها. دلع وأحضان وبوس، والله بتحبني حب مفيش حرمة حبتهولي. أختها الرمادي المخططة اسمها نحمده. أحن من كريمة مختار، بتسهر جنبي وأنا عيان وكل شوية تسرق أكل من مطبخ الجيران وتيجي تسيبهولي على السرير. بتغذيني يا حبة عيني.

علق فادي:

- مهما قلت، أنا مستحيل أثق في قطة. عمتو تيريز كانت مربية قطتين وروحها فيهم، ولما ماتت في بيتها من غيبوبة سُكر وفضلت أيام محدش عارف إنها ميتة، القطط أكلوا عينيها.

تلاشت ابتسامة صلاح الواسعة التي كان يحكي بها عن قططه وصاح في فادي:

- وإيه ذنب القطط يا ابني. أنا لسه شايف فيلم عن صيادين تاهوا في البحر وأكلوا أصحابهم من الجوع، مش عايز القطة المسكينة تعمل كده؟ وبعدين يا بيه إنت لو كنت بتود عمتو تيريز ما كانتش القطة أكلتها.

تدخلت قائلًا:

- اهدا يا صلاح الكلام أخد وعطا.

- استنى إنتَ يا نوح. وبعدين يا فادي بيه ما إنتَ عندك نموذج مشرف للقطط أهو، القطة المسكينة اللي ماتت في المطبخ دي ماتت ليه؟ مش كانت بتحاول تدافع عن صاحبها لآخر نفس؟

- دي حالات نادرة يعني، الكلاب هي اللي حرفيًّا بتضحي بحياتها عشان صاحبها، لكن معظم القطط غدارة زي

قطط عمتو تيريز، مش بس بياكلوا عيالهم، طلعوا بياكلوا البني آدمين كمان.

- ده أنا اللي هاكلك على وشك دلوقتي عشان سمعة القطط اللي بتشوهها دي!

استقبل فادي قول صلاح بنظرة حادة فأنهيت تلك المهزلة بأن قلت:

- مع احترامي يا رجالة للكلاب وللقطط ولعمتو تيريز، أنا هطلع أشوف السِّت بني آدمين اللي اتقتلوا فوق.

* * *

بمجرد أن صعدتُ إلى طابق الكول سنتر، انطفأت مصابيح سلالم العمارة كلها.

تحسستُ طريقي حتى أُشعل ضوء الطرقة، ولكن استوقفتني دائرتان صفراوان لامعتان تطوفان في الهواء على بُعد خطوة مني.

أجفلتُ ووقفتُ في مكاني، ليس لأنني أجهل أن هاتين الدائرتين هما عينًا قط يقف أمامي في الظلام، بل لأنني لم أرد أن أتحرك فجأة فيركض نحو الباب المفتوح الذي تركه العسكري من دون حراسة، ويلوث مسرح الجريمة.

قررتُ أن آخذ نصف خطوة متأنية إلى اليسار لأشعل الضوء وأحسن تقييم الوضع.

رفعت قدمي اليسرى ونزلت بها ببطء، ليس على الأرض للأسف بل على ذيل القط.

هذا ما كان ينقصني، أدعس ذيلَي قطين في الليلة نفسها فيصيبني النحس أكثر مما أنا منحوس.

رفعت رجلي فورًا عن ذيل القط فركض نحو الباب. كدتُ أن أهرول نحوه لأمنعه، ولكن ظهر من وسط الظلام ظل رجل بدين، كان يصعد السلم ثم توقف عند باب الكول سنتر، فضرب ظهره نور الشقة بينما واجهه ظلام الطرقة.

هش القط، فوثب أمامه بخفة ثم أسرع ينزل على السلالم، فتنفستُ الصعداء وضغطتُ على زر الإضاءة.

ألقت المصابيح نورها على منقذ مسرح الجريمة من فوضى القط. كان يرتدي بدلة سوداء مكونة من قميص أبيض ناصع، ورابطة عنق باهظة الثمن، وصديري لا داعي له في هذا الحر الخانق، وفوقه سترة معلق في عروة زرها عند الصدر وردة حمراء بلاستيكية، كأنه هرب من حفلة تنكرية ارتدى فيها زي الدون فيتو كورليوني من فيلم «The Godfather».

لن أنكر أنه أنيق، ولكن هذا لا يغير حقيقة أن دكتور عاطف الهمشري هو آخر شخص أتمنى أن أراه، فآخر ما ينقصني الليلة هو أن أجد زوج أمي يقف أمامي بجسده الرخو ونظارته الطبية التي تشبه نظارة والد الفيل بابار، والفازلين الذي يغرق به شعره المصبوغ المجعد، كأن هذا سيخفي أنه تخطى الستين من عمره، وبصوت أنفاسه الثقيلة المقيتة.

أطَلنا التحديق إلى بعضنا، حتى كسر هذا الصمت بصوته الغليظ الذي ينقبض منه قلبي ويجعل عضلاتي تنكمش:

- إنت اللي بتحقق في الجريمة؟

- بتعمل إيه هنا؟

- إنتو اللي استدعتوني، أنا صاحب شقة الكول سنتر.

يا الله يا ولي الصابرين، من بين مائة مليون مصري لم يشترِ هذه الشقة سوى دكتور فازلين!

أظن أنه لم يكن أقل استياءً مني لإدراكه أن القدر سيجبرنا على التعامل معًا، وبينما كتم في نفسه الضغينة الأبدية التي يحملها كل منا تجاه الآخر، أعلنت أنا عن استحالة مقدرتي على التواصل معه بأن قلتُ:

- ده موقع جريمة وممنوع دخول المدنيين.

- بس العسكري قالي إنك...

- انزل وهبعت حد ياخد أقوالك.

زفر وهو يرفع معصمه حتى يتفقد الوقت في ساعته الذهبية التي تلمع مثل الخاتم الذهبي الذي يزين به خنصره، ثم قال متأففًا:

- الحكاية دي هتخلص خلال قد إيه لأن سعاد مستنياني.

زوج أمي هو الشخص الوحيد القادر على استفزازي إلى درجة ترفع مؤشر قياس غضبي من صفر إلى مائة بجملة عابرة كالتي قالها الآن.

فقدت كل ما أملك من تحكم في الأعصاب وضبط نفس ووجدت ساقَي تقودانني للاقتراب منه، والوقوف أمامه مستنفرًا وأنا أهمس إليه بكراهية تسع الكون وتفيض:

- ما تجيبش سيرة أمي قدامي.

قابل غضبي ببرود وقال:

- هو أنا بجيبها بسوء؟ دي مراتي.

- عدي ليلتك على خير وإلا...

- يا نوح!

أتى النداء من خلفي، فالتفت لأجد أن مُناديَّ هو العميد.

أقبل علينا وقبض على مرفقي ليرجعني خطوة إلى الوراء مباعدًا بيني وبين الدكتور فازلين وهو يقول مؤرجحًا نظره بيننا كأنه يستعد لفض اشتباك وشيك:

- محتاج مساعدتي؟

ابتلع الغضب لساني، وتاهت الردود المنطقية عن خاطري، فأجابه الدكتور فازلين:

- أنا الدكتور عاطف الهمشري صاحب الشقة، جَاي أديكم أقوالي.

ابتسم العميد له ابتسامة بدت لي مصطنعة وصافحه، ثم قدم له نفسه وأضاف بنبرة آمرة حازمة:

- ممنوع تواجد المدنيين في مسرح الجريمة زي ما حضرة الرائد قالك. من فضلك تنزل.

- طب ما تنزل معايا تاخد أقوالي عشان نخلص.

- أخذ الأقوال من تخصص المباحث أو النيابة مش تخصص النجدة يا دكتور. اتفضل!

لم ينزل العميد يده عن مرفقي، بل تحولت مِسكته لي إلى تربيتة أبوية وهو يراقب الدكتور زفت ينظر إلينا شزرًا، ثم

يهز رأسه منصاعًا لأمر العميد وينزل على السلالم لاهثًا من أبسط جهد حركي.

حين ابتعد عن الكول سنتر بما يكفي كي لا نسمع أنفاسه المزعجة، سألني العميد سؤالًا جعلني أدرك أنه أنصت إلى حديثي مع زوج أمي منذ بدايته:

- هي دكتورة سعاد اتجوزت من بعد يحيى؟

- حقها الشرعي، عندك اعتراض على شرع ربنا؟

خرجت الجملة مني بحدة وقلة تهذيب جعلتني أخجل من نفسي، ومع ذلك لم يزدرِ العميد البشوش انفعالي ومغالاتي في الدفاع عن كرامة أمي التي هي من كرامتي، حتى وإن كنتُ معترضًا على كل تصرف وفعل تفعله.

كنت على وشك الاعتذار منه ولكن يبدو أنه رأى نظراتي النادمة على سلوكي، فآثر أن يرفع عني الحرج بأن أشار إلى قميصي وسألني بابتسامة هزلية:

- اللي على الـ«Chemise» دي إصابة عمل؟

ضحكتُ للمرة الأولى في هذه الليلة الكبيسة وأنا أضع يدي على موضع بقعة التوت على صدري وأقول:

- إنت كمان خريج فرنساوي زي فادي؟

- فادي ده اللي رَجَّع على الجثة؟

- أيوه، بجملة النحس. أصل بعيد عنك دوست على ديل قطتين سود.

نظر إلى يدي اليمنى ثم قال مشيرًا إلى دبلتي:

- الفرنساويين بيقولوا إن لو أعزب داس على ديل قطة هيفضل طول حياته سينجل. لكن لو مرتبط زيك كده، لا هيعاني من النحس ولا من العزوبية.

تأوه فجأة، فرأيتُ علامات الألم على وجهه.

سألته:

- مالك؟

- اليورك أسيد مبهدلني.

- جدتي عندها نفس المشكلة بس بتابع مع دكتور ممتاز.

- أنا كنت عند الدكتور اللي هنا بس البلاغ جالي فطلعت قبل ما أخلص الكشف. هخلص المعاينة معاك ويدوبك ألحقه قبل ما يقفل.

شعرتُ أنه شاركني تلك المعلومة ليطلب مني بطريقة

مهذبة وغير مباشرة أن أستعجل، وألا أطيل عليه البقاء معنا خصوصًا أنه أدى دوره على أكمل وجه.

تأكدت من نظريتي حين قادني بخطوات متعجلة إلى المنور حيث المدخل إلى سلم الخدم، ووصلنا منه إلى المطبخ فتوقفنا عند عتبة الباب.

كان رياض يجري مكالمة غالبًا لمديره لينقل له مستجدات المعاينة الأولية، بينما يرسم فني الطب الشرعي على الأرض وضعية جثة القط بالطباشير ويضع زميلاه جثة علاء في حافظة الموتى السوداء، ويصور الشاب خالد ذيل القط الملوث بقيء فادي عن قرب.

سعل العميد فأسرع يخرج منديلًا من جيبه يكتم به سعاله العنيف، الذي جعل عينيه تدمعان وجبينه يتفصد عرقًا.

خفت السعال تدريجيًّا، فأعاد المنديل إلى جيبه وأخذ نفسًا عميقًا، ثم وضع الكمامة على فمه وقال لي بابتسامة مرهقة وصلت إلى عينيه الدامعتين:

- جاهز تدخل مسرح الجريمة؟

* * *

في يومي الأول في المباحث الجنائية، نصحني جدي حسين نصيحة اتخذتها منهجًا في تحقيقاتي: «أن تحقق

في مسرح جريمة يا نوح يعني أن تكون لك عين كالمجهر تفحص أدق التفاصيل، وعين كالتليسكوب تلتقط أبعد الأدلة».

هكذا غيرتُ ضبط إعدادات عينَي بمجرد أن دخلتُ الكول سنتر، ونفضتُ عني الغضب الذي تملكني من رؤية زوج أمي اللعين.

عبرتُ المطبخ مع نادي فلاحظت أن قوائم القطة الصغيرة التي وجدها صلاح عند سلم الخدم تركت آثارًا دموية في أرجاء المطبخ، ولكن الأثر الأهم الذي تتبعته بنظري في هذه اللحظة كان لحذاء رجالي مدمى يبدأ عند عتبة المطبخ ومن بعدها على الموكيت الرمادي الذي يفترش باقي الشقة، وصولًا إلى الطرقة المؤدية إلى الحمَّام حيث تنتهي الآثار أسفل الحوض.

تعود الآثار إلى فردة حذاء واحدة مما جعلني أعود إلى ملاحظاتي حول جثة القط، وأضع فرضية أن القاتل هشَّم رأس الحيوان الصغير اللين بقدمه وليس بأداة ثقيلة، ثم دخل الحمَّام يغسل حذاءه حتى يهرب من دون أن يلفت الأنظار إليه، وما يؤكد ذلك أن الآثار نتجت عن دخول الحمَّام فقط وليس الخروج منه.

سجلت هذه الملحوظة في أثناء سيري داخل الممر

الأمني الضيق الذي نلتزم بحدوده حتى لا نعرقل عمل فنيي المعمل الجنائي وهم يقطعون بمشارطهم أجزاءً من الموكيت المدمى لتحليله، ويسحبون بقطاراتهم عينات من بقع دماء الجثث، وينثرون مسحوق الألومنيوم لرفع البصمات عن مقابض الأبواب والنوافذ وأطراف المكاتب، ويلتقطون بملاقيطهم خصلات الشعر وألياف الملابس والأنسجة الجلدية ويضعونها في الأغلفة البيولوجية، ويتجهون بها إلى غرفة منطقة التطهير لتسجيل تسلسل الأحراز.

نظرًا إلى ضيق مساحة الممر، اضطررت إلى السير بجانبي ملتصقًا بالحائط كالبُرص حتى يتمكن باقي الأفراد من المرور بجواري، ومع ذلك لم أسلم من ارتطامهم بي، ووكزهم لي، ودعسهم حذائي.

أسهب العميد في أثناء سيرنا في وصف الشقة الفسيحة ذات السقف الأبيض العالي. وأشار إلى أن لها مدخلًا يقابل مكتب الاستقبال، والمدخل الآخر خاص بسلم الخدم الذي يتصور أن القاتل دخل وخرج منه.

أخبرني أيضًا أن للشقة حمّامين متجاورين على أحدهما علامة وردية للإناث والأخرى زرقاء للذكور، يليهما في الطرقة نفسها مخزن صغير موصد بمفتاح إلكتروني

ممغنط، مما جعل حسني يستعجل طلب فني تقني ليفتحه لنا، ومن ناحيتنا حاول صلاح وفادي الاتصال بفرَّاش المكتب الذي أخبرهم أبو وردة أنه يملك كل مفاتيح الشقة، ولكن هاتفه كان مغلقًا مثل هاتف صاحب الكول سنتر.

مصادفة؟!

شغلني الارتياب من اختفاء الفرَّاش ومالك الكول سنتر مباشرة بعد مقتل وردية المساء بأكملها، وأنا أتبع العميد نحو طرقة الحمَّامين.

سرنا وعلى يسارنا باب غرفة اجتماعات فسيحة، تليها غرفة اجتماعات أصغر حوَّلها حسني ورجاله إلى منطقة تطهير تعج بزجاجات الكحول الإيثيلي، والقفازات الطبية، والمواد الكيميائية الضرورية لتعقيم أدواتهم، ورفع الأدلة وتحريزها وتسجيلها حتى ننتهي من العمل في مسرح الجريمة، ثم ينقلونها إلى المعمل الجنائي.

لطمت لذوعة الكحول عينَي المرهقتين، فشعرت بحرقة شديدة أسالت دموعي.

أعطاني العميد منديلًا مسحت به عينَي، ثم وقفت معه عند عتبة حمَّام الإناث.

كان بابه مفتوحًا وبلاطه ورديًّا، مكونًا من مقعد حمَّام وحوض فوقه مرآة على يسارها خزانة إسعافات أولية مغلقة يجاورها مقبض كهربائي.

لم أجد ما يثير فضولي من وقفتي عند العتبة، ولن أتمكن من الدخول وفحص المكان بدقة قبل أن يفرغ فريق الطب الشرعي من عمله، فتخطيته ووقفتُ عند حمام الذكور.

كان بابه مغلقًا وبه ثقب على ارتفاع نحو متر وثمانين سنتيمترًا.

أشار العميد إلى موضع الثقب وقال:

- ده أثر مرور الرصاصة اللي قتلت الشاب اللي جوه.

دققتُ النظر إلى الثقب، كان بيضاويًّا تنتشر منه شقوق وتصدعات وتحيطه هالة من الاسوداد البارودي، ورأيتُ على الموكيت بقايا دهان وقشور خشبية سقطت إثر الرصاصة، والتي يبدو أنها انطلقت من فوهة مسدس كانت قريبة من الباب حد الالتصاق به.

سجلت كل ما سبق في الدفتر ثم سألتُ العميد:

- حضرتك اللي قفلت الباب؟

- كان مقفول لما وصلت، بس طبعًا اضطريت أفتحه عشان أشوف الضحية عايشة ولا ميتة.

- يعني المجني عليه اتقتل والباب مقفول؟

هزَّ رأسه وهو يسب ويلعن المجرم بانبهار، بينما وقفتُ مشدوهًا لا أصدق حرفيته.

كيف أطلق القاتل رصاصة مميتة من دون أن يرى هدفه؟ هل اعتمد على سمعه؟ هل القتيل كان يتحدث أو يغني أو ملتصقًا بالباب حتى يتمكن القاتل من سماع أنفاسه وإنهاء حياته بتلك الأريحية من دون حتى أن يفتح الباب ليتأكد من نجاح مهمته؟

رأيت حسني يقترب منا هو ورياض، فطلبت منه فتح الباب بمساحة تكفي فقط لأمد رأسي وأرى وضع الجثة.

هز رأسه مستخسرًا أن يقول «نعم، لا مانع» فلم أعطِ لأسلوبه الفظ أكبر من حجمه، فتحت الباب ودسست رأسي في الفَرجة الضيقة بين الباب وإفريزه فرأيت الضحية.

وائل ابن التسعة عشر عامًا كما جاء في هويته الشخصية، ملقى على جانبه الأيسر على الأرض، وقد بهت جلده وارتخت عضلاته، بينما سالت الدماء من موضع إصابته

في يمين رأسه فوق الأذن، تاركة بقعة حمراء قانية واسعة أسفله.

تلك الوضعية أكدت أن تخميني الثالث صحيح، القتيل كانت أذنه ملتصقة بالباب، ربما سمع حركة القاتل أو صرخة استغاثة، أو ربما رأى القاتل ثم أسرع بالاختباء في الحمَّام ولكن بعد فوات الأوان، تتبعه القاتل وقتله من المسافة صفر من دون أن يلتقيا وجهًا لوجه.

أغلقتُ الباب ثم خرجنا من الطرقة متجهين إلى الصالة الرحبة.

من الجهة اليسرى للصالة، تتفرع طرقة ثانية موازية للطرقة التي خرجنا منها للتو، هذه الطرقة تؤدي إلى غرفة المدير الفسيحة، تجاورها غرفة استراحة الموظفين، وبكل غرفة منهما شرفة تطل على شارع حسن مراد.

في الجهة اليمنى، تتراص مكاتب الموظفين المتلاصقة الكئيبة منعدمة الخصوصية، وتتدلى من السقف أمامهم شاشة «LCD» تعرض نصائح سطحية لا نفع منها لممثلي خدمة العملاء، وفي نهاية المكاتب هناك منطقة تتناثر فيها مقاعد «bean bags» فاقعة الألوان خلفها مكتبة ضخمة قابلتُ نموذجًا منها في كل غرفة دخلتها باختلاف حجمها وفقًا لمساحة الغرفة. مكتبة

مزينة بديكورات بلاستيكية لا نمط لها ولا صفة مشتركة بينها، وتكثر من بينها كتب يبدو أنهم اشتروها من بائع روبابيكيا بغرض التزيين فحسب، فعناوين أغلبها كانت بأحرف لغة لا أدري إن كانت روسية أم هندية أم صينية، المهم أنها لغة أشك أن أحدًا يجيدها في هذا الكول السنتر.

على اثنين من هذه المكاتب جلست جثتان مصابتان برصاصتين لا تصدران إلا عن قناص محترف، واحدة في الرأس، تحديدًا في المنطقة بين العينين، وأخرى في الصدر حيث موضع القلب.

خمنتُ من ارتخاء رأسيهما إلى الخلف على مسند رقبة المقعد، أنهما أصيبا بالرصاص من الأمام، ليس من الخلف مثل علاء المغدور به، ولا من الجانب مثل وائل رحمه الله، وما أكد ذلك هو أن دماءهما سالت في خط عمودي من الجبين حتى الخصر.

اقتربتُ لأتفقدهما من كثب، كلاهما يرتدي هوية الموظفين المتدلية من الحامل البرتقالي، ويضعان سماعة الكمبيوتر على أذنيهما.

انتبهتُ لوجود شطائر كفتة ودجاج بانيه ومياه غازية وأكياس رقائق بطاطس مقلية، في المساحة ما بين مكتبيهما. كان

فتات الطعام متناثرًا على صدريهما، واللقيمات ما زالت في فميهما.

لقد قُتلا على غفلة وهما يتقاسمان الطعام كما يفعل أي زميلين مطحونين بين رحى الرأسمالية.

قال العميد وهو يشير إلى كل جثة على حدة:

- ده مينا، واللي جنبه عبد الرحمن. جثثهم اتصورت وحسني فحصهم، والمفروض يشيلوهم دلوقتي. تعالى أوريك جثة الـ«receptionist» قبل ما نطلع لجثة الأسانسير.

أشار إلى المكتب حيث جثة موظفة الاستقبال. كانت الفقيدة متشحة بالأسود من رأسها وحتى قدميها، وشعرها مصبوغ بالأزرق الفاقع، وطلاء أظفارها أسود متآكل، وتزين أصابعها خواتم فضية كان أبرزَها خاتم ضخم في بنصرها على شكل جمجمة.

بنظرة أولية لجثتها وهي جالسة على مقعدها يصورها الشاب خالد بينما يفحصها حسني ومساعده إيهاب بكشافه، أدركتُ أنها ماتت بدورها برصاصة في الرأس.

قبل أن أنهمك في تدقيق النظر إلى وضعية جثتها، ألقيت نظرة خاطفة على مكتبها فخطر على ذهني ملحوظة مهمة دونتها في دفتري كالتالي:

- **لا توجد أي أجهزة كمبيوتر في الكول سنتر!**

سألتُ العميد:

- لما دخلت الشقة لقيت أي موبايل أو لابتوب أو آيباد؟

- لأ.

- **القاتل سرق الهواتف والحواسيب (الدافع؟).**

عدتُ لأدقق النظر في جثة بسنت، نصفها العلوي كان ممددًا فوق المكتب الخشبي الأبيض، وكفاها منبسطتان بجوار رأسها الذي يسيل منه خط دماء رفيع على قفاها وخدها.

تلك الوضعية جعلتني أتصور كيف قُتِلت، كانت جالسة على مكتبها من دون أن تنتبه لموت صديقها في المطبخ ولا في الحمَّام. ربما بفضل كاتم صوت المسدس، أو ربما كانت تجري مكالمة هاتفية، أو ربما انشغلت بوضع الملفات في درج المكتب السفلي المفتوح أمامي الآن. أتخيلها تميل لتضع الملفات وفور أن ترفع رأسها ترى من مكانها جثتي مينا وعبد الرحمن على مكتبيهما، ولكنها لم ترَ القاتل.

من شكل وموضع إصابتها، أتخيل المشهد، القاتل لم يقتلها من المسافة صفر، بل وقف على يسارها موجهًا مسدسه نحوها من دون أن تلمسها فوهته، فكان رد فعلها

أن رفعت يديها إلى أعلى كما ترى في الأفلام لتعلن استسلامها عسى أن يعفو عن حياتها.

هل قالت شيئًا؟ هل بكت؟ هل استنجدت؟ هل حاولت الصراخ؟

لا يهم، لم يرِق قلب القاتل لها على أي حال. ضغط على الزناد فانطلقت الرصاصة واخترقت رأسها، فسقطت الضحية بنصفها العلوي فوق المكتب متزحزحة قليلًا ناحية اليمين، ويداها المستسلمتان بجوارها.

هكذا، تحولت بسنت من شابة عمرها عشرون عامًا طالبة في كلية الفنون الجميلة كما تقول بطاقتها، إلى جثة أؤلف تفاصيل سيناريو مقتلها الآن.

- نطلع نشوف جثة أشرف؟

انتشلني سؤال العميد نادي من مشهدي التخيلي، ولكني لم أكتفِ بعد من تفاصيل مقتل بسنت.

لفت انتباهي أن حامل هوية الموظفين كان حول عنقها كباقي زملائها، ولكن على عكسهم كان من دون كارت الهوية الممغنط.

هل سرقه القاتل منها وبذلك يكون قد هرب من مدخل الشقة الرئيسي، لا سلم الخدم كما يزعم العميد؟

إجابة هذا السؤال ستكون محورية في السيناريو الأولي لتحركات القاتل داخل الشقة الذي سأضعه بعد فحص الجثة الأخيرة في المصعد، ولكن استوقفني سؤال آخر طرحته على حسني على مضض:

- لقيتوا فوارغ الرصاص؟

- لأ.

- يعني سلاح الجريمة مسدس أبو ساقية؟

علق العميد نادي:

- مسدس أبو ساقية آخره يشيل سِت رصاصات، وعدد الرصاصات اللي رصدناه لحد دلوقتي أكتر من كده بكتير. أعتقد سلاح الجريمة طبنجة جلوك أو هكلر.

- لو نظريتك صح يبقى فين الفوارغ؟

- القاتل لمها قبل ما يهرب. ولا إيه رأيك يا دكتور حسني؟

أجابه حسني بجلف:

- هنعرف لما نخلص بيان المقذوف.

أخرج حسني كشافًا ليفحص جرح بسنت بدقة، فاقتربتُ أنا وإيهاب والعميد ووكيل النيابة لنرى أثر الرصاصة

ولكن شيئًا لفت انتباهي، ليس في الجثة بل في الحائط على يمينها في مستوى رأسها نفسه.

في أثناء ذلك، وصل فادي وصلاح الذي اقترب من العميد وبدأ يتملقه كما يفعل في العادة مع كل من يعلوه رتبة، فصرفه العميد بأن أمره بالنزول إلى زوج أمي اللعين ليأخذ أقواله.

خرج صلاح من الشقة وبقي فادي يشغل نفسه بالنظر إلى كل شيء في الصالة عدا جثث الضحايا.

تحركت من خلف الجثة مع حسني ومساعده والشاب خالد ونظرت إلى الحائط، كان به تجويف صغير على عمق عقلتي إصبع وفي عرض ظفر إبهامي، فخمنت أن هذا التجويف كان المستقر الأخير للرصاصة التي اخترقت رأس بسنت.

قال حسني لمساعده بينما يغير الشاب خالد عدسة كاميرته:

- الطلقة دخلت في الجزء الأيسر من الرأس خلف الأذن عند نهاية خط الشعر وخرجت من فوق عظم القذال. الرصاصة مش في راسها.

هكذا تأكدتُ من تكهني، وكدتُ أن أخبرهم باكتشافي، ولكني سمعت صوتًا ضعيفًا مقتضبًا بدا لي كشيء معدني نقر مكتب بسنت.

من نظرات الجميع إلى بعضهم، أدركتُ أنني لست الوحيد الذي سمع هذا الصوت الخافت.

تكرر الصوت، فلم نسمعه هذه المرة فحسب، بل رأينا مصدره. خاتم الجمجمة الضخم الذي يزين خنصر بسنت نقر مكتبها الخشبي في حركة فجائية منها.

الجثة حركت إصبعها!

٥

حمل المسعفون بسنت على نقالة وخرجوا بها من الشقة تحت إشرافنا. وقفت أنا وفادي في صحبة العميد نراقبهم يغلقون باب سيارة الإسعاف، ثم ينطلقون يسبقهم صدى السارينة بينما يقف حسني في الزاوية مع رياض يهمس له بخبث وينظر نحونا شزرًا مما أكد لي أنه يوسوس له حتى يحملنا مسؤولية هذا الخطأ الفادح كاملة.

هز رياض رأسه كأنه يُؤمِّن على كلام حسني، ثم أشار إليه ليمنحه بعض الخصوصية حتى يجري مكالمة بخصوص تلك التطورات الخطيرة.

قبل أن تصل سيارة الإسعاف إلى نهاية الشارع، كان صلاح يقبل علينا بعد أن فرغ من أخذ أقوال زوج أمي، وسألني أنا وفادي:

- إيه اللي نزلكم؟

لخصتُ له الفضيحة، فما كان منه سوى قول:

- الحمد لله إن ربنا كتب لها عمر جديد، وما حرقش قلب أهلها عليها.

لا أدري إن كانت هذه الجملة نابعة من مقدرته على رؤية الجانب المشرق من هذه المصيبة، أم نابعة من نعيم الجهل الذي يرتع فيه.

آثرتُ ألا أخوض نقاشًا مطولًا حول سذاجة اعتماده على عميد النجدة بخصوص تقييم حالة بسنت، ولكن يبدو أن تعبيرات وجهي ونظراتي للعميد فضحتني، فقد أسهب في الاعتذار لأنه لم يحسن تقييم حالة المجني عليها، وجزم بموتها كباقي زملائها بمجرد أن رأى موضع الرصاصة في رأسها.

قلتُ لصلاح:

- خدت أقوال صاحب الشقة؟

- آه. قال إنه مأجرها من سنتين لواحد اسمه أحمد سراج، ده يبقى صاحب الكول السنتر وملوش أي شركاء.

سأله العميد نادي:

- يعني ما قالكش معلومة تنفعنا؟

- ولا الهوا. خدت منه الكلمتين الحمضانين دول وسجلت بياناته وسيبته يتكل على الله. صحيح، العسكري اللي بعتناه لأحمد سراج ده ما لقهوش في بيته، أمه قالت إنه في الساحل، ابن المحظوظة بيبلبط وسايبنا في الهم ده!

قلت لصلاح:

- اعمل حسابك تروح المستشفى وعينك تفضل على بسنت لحد ما أهلها يوصلوا. تاخد أقوالهم وما تمشيش غير لما تخرج من العملية، ماشي؟

قبل أن يجيبني، كان رياض أنهى مكالمته وأقبل علينا هو وحسني مقاطعين حديثنا.

قلب حسني نظره بيننا، ثم صاح من دون أدنى احترام للعميد الذي يفوقنا رتبة وعمرًا:

- أنا محتاج تفسير منطقي للعبث والعشوائية اللي بتتعاملوا بيها مع مسرح الجريمة.

أخذ يعد على أصابعه مستعرضًا أخطاءنا أمام وكيل النيابة:

- لوثوا الأدلة الجنائية، ما حرروش تقرير المستجيب الأول، رجَّعوا على الأدلة الحيوية، ما كتبوش سجل حضور مسرح الجريمة، وكمان...

قاطعه صلاح بثقة لا تليق بأخطاء المبتدئين التي ارتكبها فريقنا الليلة:

- بالراحة يا ابني أحسن الحَزق ده مضر بالصحة! حط يا دودي سجل حضور مسرح الجريمة في عين الدكتور عشان أعصابه تهدا.

مال فادي إلى صلاح وهمس إليه همسًا سمعته بوضوح بحكم أن كتف صلاح كانت ملتصقة بكتفي.

- سجل الحضور ضاع مني وأنا برجَّع.

عض صلاح على شفتيه، ونظر إلى فادي بضيق وقال:

- الله يكسفك. فالح بس تقولي باردون وبنسوار وكومون صفاء!

لم يتبيَّن وكيل النيابة غمغمتهما، فسأل فادي بصوته العميق الصارم:

- فين سجل الحضور؟

أجابه فادي بنبرة تفضح خيبته:

- أنا ممكن أسمَّعهلكم حرف حرف.

زمَّ رياض شفتيه الداكنتين مرددًا ما قاله فادي باستنكار:

- تسمعهولنا حرف حرف؟

قهقه حسني ساخرًا من زميلي وقال:

- معلش يا رياض بيه، أصل دودي فاكرنا في شفوي الفاينال!

طفح كيلي، لا أقبل من أي شخص أن يسخر من رجالي حتى وإن فشلوا فشلًا ذريعًا.

واجهتُ صياح حسني بأن سألته بنبرة فاترة تستخف من غضبه:

- صوتك عالي ليه؟

- زمايلك بلغوني إن عندنا سِت جثث بشرية طِلعوا خمس جثث وزومبي وعايزني ما أعليش صوتي!

- وإيه علاقة ده بظباط الشرطة؟

- ما حضرة العميد أكد إن البنت ميتة و...

كاد نادي أن يبرر موقفه ولكني ضغطتُ على مرفقه ليصمت وأسرعتُ أقول ببرود:

- مش مسؤولية ظابط الشرطة إنه يأكد وفاة الضحية، ولا يجزم بنوع إصابتها، ولا حتى السلاح المستخدم. ده تخصص الطب الشرعي.

التفتُّ إلى رياض موجهًا سؤالي إليه:

- صح يا سيادة وكيل النيابة ولا أنا ناسي الإجراءات الجنائية؟

تدبر رياض كلامي لثوانٍ ثم هزَّ رأسه يقول:

- لأ، مش ناسي الإجراءات الجنائية يا سيادة الرائد.

رأيت حسني يزدرد ريقه إثر لكمتي الخبيثة له وتصديق وكيل النيابة عليها، ثم قال محاولًا أن يحفظ ما تبقى من ماء وجهه:

- بس المستجيب الأول المفروض إنه...

- المفروض إنه يجس نبضها ويحاول يسمع نفسها. وده اللي سيادة العميد عمله بس هو مش ماشي بسماعة طبية عشان يعرف إن قلبها بينبض بالضعف ده. كون إن فريقك اتعامل مع ملاحظات المستجيب الأول كأنها مسلمات من غير ما يعملوا الفحوص اللازمة فده تقصير منكم هكون حريص على إرفاقه في ملف التحقيقات.

تلقى اللكمة الثانية، فثبت نظارته على أرنبة أنفه وهو يحاول أن يردها إليَّ:

- وبالنسبة لأخطاء دودي بيه و...

- هكون برضو حريص على ذكر كل تصرف عمله الملازم

فادي. دي حاجة ما تزعلش، كلنا بنتعلم من أخطائنا زي ما إنت اتعلمت من أخطاء جريمة أبو الفدا يا دكتور.

هكذا صددتُ لكمته وسددت له الضربة القاضية التي جعلته يترنح ويصيح فاقدًا أعصابه:

- هي بقت كده يعني يا نوح؟

هززت رأسي مؤكدًا على أنها «بقت كده»، فأعاد ارتداء كمامته وغطاء رأسه وهو يقول:

- خمس دقايق وتقرير المستجيب الأول يكون قدامي!

أدار لنا ظهره وعاد إلى مسرح الجريمة يتمتم ويصيح بغضب طفولي في فريقه.

أخرج فادي سيجارته الإلكترونية من جيبه، ولكنه اكتشف أن شحنها قد نفد، فاستبدل علبة سجائره بها.

حدق به رياض ثم أمره:

- هاتلي البوّاب عشان آخد أقواله.

انتقى فادي سيجارة وضعها بين شفتيه، وقال وهو يخرج قداحته من جيبه:

- ما إحنا خدنا أقواله، وهنبقى نقدمهالك مع ملف القضية، إيه لازمة الـ«double work»؟

تطاير الشرر من عيني رياض الداكنتين من جلافة رد فادي.

حدقت إلى السماء الغائمة وأنا أكرر في عقلي: «اهدأ يا نوح، لا يجوز أن تصفع زميلك على قفاه أمام وكيل النيابة».

تخلصت من سُميات غضبي وهممتُ أن آمره بتنفيذ طلب رياض بلا سفسطة، ولكن صلاح بارك الله في سرعة انفعاله ضرب كتف فادي، وقال له بنبرة ميري حادة شفت غليلي:

- نفذ التعليمات يا كومون صفاء ما تخنقناش!

انتشل صلاح منه قداحته، وحدق بها متأملًا ألوانها المتدرجة بين البنفسجي والأخضر ومرسومًا عليها الجوكر وهارلي كوين.

ضحك متندرًا ثم سأله:

- بلياتشو يا فادي؟

- ده الجوكر!

- مش ده الممثل اللي لسع وانتحر؟

علق فادي باستنكار جم كأن صلاح سدد له ركلة تحت الحزام:

- إنت بتتكلم كده عن هيث ليدجر!

- يعني بتكلم عن هيثم زكي يا أخويا! الواد بدَّع في ملحمة فيلم البلياتشو وأديه زي الفل بعقله ومكسر الدنيا في كلبش اتنين.

تعرقت من فرط الإحراج من عبثية الحديث بين فادي فتى شرم الشيخ الفرانكوفوني الذهبي، وصلاح كبير جدعان عابدين أمام وكيل النيابة.

يبدو أن رياض نفسه نفد صبره من هذا الغباء، فانتشل من صلاح القداحة واختطف السيجارة من بين شفتي فادي فأمسكا عن الكلام.

وقف يقلب نظره بين كلٍّ منا من رؤوسنا حتى أقدامنا بنظرات ثاقبة شعرتُ أنها تخترق روحي، ثم قال بنبرة جادة لا تعرف اللين ولكن بصوت خفيض:

- نفذ التعليمات، وبدون أخطاء!

لم ينتظر منا تعليقًا، استدار متبعًا خُطى حسني إلى مسرح الجريمة، وبمجرد أن ابتعد عنا بما يكفي حتى لم يعد يسمعنا، ضربني صلاح على ظهري بغشم يقول بضحكة شامتة:

- عَلِّمت إنت على حسني وفرسته.

- يا أخي منكم لله خلتوني أجادله في الغلط.

أنزلت يده عن كتفي بضيق فضغط العميد على كتفي الأخرى وهو يقول:

- أنا آسف على المشاكل اللي سببتهالك دي بس حقيقي اللي خلف ما ماتش. باباك برضو كان في ضهر كل رجالته كده وأولهم أنا.

تلك الجملة القصيرة غمرتني بالفخر في توقيت كاد أن يتمكن مني الإحباط فيه.

ابتسمتُ للعميد وقد اقشعر بدني كله، صحيح أن أبي استشهد منذ عقدين، ولكن كلما وضعني أحدهم معه في جملة مفيدة أو أوجد بيننا رابطًا مشتركًا، يغوص قلبي بين ضلوعي ويسقط في أعماق حنيني إليه فتبسط عواطفي سلطانها عليَّ حتى تلمع عيناي بالدموع.

ربتُّ على صدر تلميذ والدي الذي لم ينسَ أفضال معلمه عليه وشكرته بابتسامة ممتنة ردها إليَّ بابتسامة أبوية مريحة وقال:

- خليني أوريك الجثة اللي في الأسانسير قبل ما أمشي.

* * *

اتجه صلاح ببوكس القسم إلى المستشفى ليتابع بسنت، وراح فادي يبحث عن حارس العقار كما أمره رياض، بينما صعدتُ أنا مع العميد إلى المصعد المقابل للمدخل الرئيسي للشقة، حيث جثة أشرف، قائد فريق ممثلي خدمة العملاء.

كان الميت الوحيد الذي لم توضع جثته في حافظة الموتى بعد، لأن الشاب خالد ما زال منشغلًا بتصويره.

مثله مثل علاء، باغته القاتل من الخلف، ولكنه تلقى رصاصتين، اخترقت الأولى قلبه، والثانية نفذت من عينه.

وضعية جثته جعلتني أضع سيناريو محتملًا للحظاته الأخيرة:

خرج من الكول سنتر يحمل حقيبة لابتوب على كتفه، دخل المصعد ظهره للباب ووجهه للمرآة يتأمل فيها انعكاسه، يفتح القاتل الباب قبل أن يتحرك المصعد ثم طاخ! طاخ!

تنطلق رصاصة صوتها مكتوم، تستقر في قلبه وأخرى تصيب مؤخرة رأسه، تخرج من عينه، ثم تستقر في جدار المصعد بعد أن تشرذمت مرآته على الأرض واختلط زجاجها بدم الضحية.

لو لم يكن المصعد بهذا الضيق، لسقطت الجثة أرضًا على وجهها وفقًا لمسار الرصاصة، ولكن ما حدث في الواقع هو أن أشرف انكفأ على ركبتيه واستند رأسه المصاب إلى جدار المصعد.

بفحص حقيبته الجلدية التي كانت معلقة على كتفه، أكد لي العميد أنه وجد بداخلها محفظة مليئة بالنقود وبالبطاقات البنكية، لكن من دون جهاز اللابتوب نفسه أو موبايل.

دوَّنت ما يلزم وأخذت أفكر، هل وصل القاتل إلى العمارة، قتل أشرف في المصعد، ثم دخل الشقة، قتل الجميع وصولًا إلى علاء في المطبخ فرأته بياتريس فهرع إلى الصالة، ثم سرق الكارت الممغنط من عنق بسنت وهرب من الباب الأمامي قبل أن يصل إليه الجيران وحارس العقار؟

هذا سؤال سأجد إجابته عند مصطفى بعد أن يفرغ من مراجعة كاميرات المراقبة.

عدتُ أنا والعميد إلى الشقة بعد أن فرغت من جثثها، وانشغل حسني وإيهاب بإطلاع رياض على ملاحظتهم.

عاد فادي ليخبر رياض أن حارس العقار في انتظاره في الأسفل. لم أود أن أصحبه، آثرتُ أن أحقق مع الحارس

لاحقًا على انفراد ولكني لم أفضل بقاء فادي داخل موقع الجريمة، لن نتحمل غلطة مبتدئين أخرى.

ناديته، فأتاني متململًا حتى قلتُ له:

- محتاجك في حاجة ضرورية.

انفرجت أساريره كطفل كُلِّف أخيرًا بمهمة من مهام الراشدين، فانتصبت قامته ووقف يفرد كتفيه وهو يسألني بحماس:

- محتاج إيه؟

- الموظفين بتوع شفت الليل متجمعين عند مدخل العمارة. عايزك تستجوبهم وتشوف لو لاحظوا حاجة غريبة، مديرهم عمل حاجة، حد من اللي ماتوا كلموهم وقالولهم حاجة قبل ما يتقتلوا، كده يعني. اتعرف عليهم وسجل بياناتهم، واسألهم الأسئلة دي واكتب أقوالهم.

مزقت صفحة من دفتري كتبت فيها بعض الأسئلة وطلبت منه أن يطرحها عليهم من دون أي إضافات، ثم أكدت عليه تسجيل كل معلومة يقولونها حتى وإن بدت تافهة بالنسبة إليه.

قرأ الورقة بصوت مسموع كأنه يحاول حفظ الأسئلة، ثم وضعها في جيبه وغادر موقع الجريمة.

* * *

فحصت الشقة مع العميد فحصًا جنائيًّا دقيقًا، سرنا فيه بالطول في داخل كل غرفة من الحائط إلى الحائط من دون أن نتعدى على مساحة حسني الذي ينظر إلينا شزرًا كلما واتته الفرصة، ويجيب عن أسئلتنا إجابات مقتضبة فاترة لا تسمن ولا تغني من جوع.

مع نهاية الفحص، وقفت في الصالة الفسيحة منزويًا بنفسي عن الجميع وقلبتُ دفتري بالعرض وأخذتُ أرسم اسكتشًا بسيطًا لموقع الجريمة، مبرزًا أهم معالمه ومحددًا موقع كل جثة والحالة التي وجِدَت عليها.

بعد أن فرغتُ من الرسم، أخذتُ أقلب بين صفحاتي مراجعًا المعلومات الأولية التي دونتها عسى أن أجد فيها الإجابة عن سؤالين سيقربانني من العثور على القاتل.

كيف قتل ضحاياه؟

لماذا قتل ضحاياه؟

يقولون في علم البحث الجنائي، كي تصل إلى القاتل يجب أن ترتدي حذاءه وتضع نظارته، لترى العالم كما يراه فتتمكن من العثور عليه وتقديمه للعدالة.

أخرجت ليمونتي من جيبي وأخذت أضغط عليها بإبهامي،

ثم أغلقت عينَي كما اعتدت أن أفعل كلما وددتُ الانفراد بخواطري.

فلنجرب التفكير مثل مجرم الليلة.

إن انتويتُ ارتكاب جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد في منطقة سكنية حيوية، سأغطي وجهي تجنبًا لعشرات الكاميرات المنتشرة حول العمارة، ولكني سأفعل ذلك بطريقة لا تلفت أنظار المارة أو تثير ريبتهم، فوفقًا لما ذكره فادي على لسان الشاهدة، القاتل كان يرتدي بدلة بيضاء نيلون وقناعًا على وجهه. ربما انتحل شخصية العاملين في إحدى شركات إبادة الحشرات؟

حسنًا، الأهم من التنكر هو السلاح المثالي لتلك العملية المليئة بالمخاطرة.

لا شك أنني سأشتري كاتمًا للصوت، وسأختار سلاحًا خفيفًا يسهل التحكم في قوة ارتداده، ومن اليسير إخفاؤه بين ثيابي.

المسدسات هي الاختيار العملي، ولكنها ليست بالمثالية التي تصورها أفلام وروايات الجريمة، فاستخدامها يخلف واشيَين سيقودانني إلى حبل المشنقة.

الواشي الأول، هو خليط الباريوم والأنتيمون الأسود الذي سيلتصق بيدي بمجرد أن أطلق الرصاصة.

ولكن مهلًا، أنا قاتل محترف، سأراوغ هذا الواشي بأن أرتدي قفازًا جلديًّا سميكًا وأنا أطلق الرصاص، وبعد إتمام جريمتي بنجاح سأغسل يدي جيدًا بالماء والصابون.

الواشي الثاني، وهو الأكثر شراسة، ظرف الرصاصة الفارغ الذي سقط من مسدسي وسيدل الشرطة على مكان وقوفي والمسافة التي أطلقت منها رصاصي والألعن من ذلك، سيكشف لهم عن السلاح الذي استخدمته لأن ماسورة وأجزاء كل سلاح ناري مششخن مثلها مثل بصمات الأصابع، تترك نمطًا فريدًا على مقذوف طلقاته لا يعرف تطابقًا مع سلاح آخر.

كلَّا، أنا أكثر مهنية من الوقوع في فخ كهذا، لن أستخدم أي مسدس بكاتم للصوت، سأستخدم مسدسًا من نوع أبو ساقية ذي أسطوانة تحفظ الظرف الفارغ بداخل السلاح ولا تلفظه إلى الخارج كما تفعل الطبنجات.

لهذا لم نجد فارغ رصاصة واحدًا في موقع أطلق فيه ما لا يقل عن ثلاث عشرة رصاصة.

القاتل المحترف اللعين!

- خطك سيئ جدًّا!

أفاقني صوت رياض من حالة عصفي الذهني فتوقفت عن اللعب بالليمونة وفتحت عيني وأنا ألتفتُ إليه.

كان يقف بجواري يضم ذراعيه إلى صدره ويمد عنقه من فوق كتفي، ليختلس النظر إلى دفتري والعميد يقترب منا.

رمقته بضيق وأنا أعيد ليمونتي إلى جيبي، ليس انزعاجًا من نقده اللاذع لخط يدي، بل لأنني لا أرى الوقت مناسبًا للتركيز على تفصيلة تافهة كتلك.

استشعر العميد تجهمي، فوقف بجواري وقال:

- الخط الوحش من علامات العبقرية ونتيجة طبيعية لفرط التفكير. وصلت بقى لإيه بعد التفكير ده كله؟

أغلقت الدفتر وقلت لهما:

- الجريمة دي كانت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

سألني رياض:

- لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؟

- إيه اللي يخلي حد يقتل شفت بالكامل في ساعة حيوية زي دي؟

- قلّنا إنت؟

- عشان مستعجل يسرق كل الموبايلات والكمبيوترات واللابتوبات.

- كل القتل ده بدافع السرقة؟

- لأ، بدافع الستر.

- جريمة شرف؟

- برضو لأ. إيه اللي ممكن يحصل في شفت كول سنتر توصيل طلبات يخلي كل اللي شغالين فيه يتقتلوا؟

أجابني العميد:

- انتحار جماعي؟ الشغل في أي كول سنتر برضو يخلي الواحد يفكر في الانتحار مليون مرة.

خاب ظني في العميد كثيرًا، كيف يقترح احتمالية الانتحار بعد أن رأينا الرصاصات التي أصابت علاء وأشرف ووائل وجميعها من الخلف، وشهدت بياتريس برؤية القاتل!

سألني رياض:

- إنت إيه تخمينك؟

- الشباب دول عرفوا حاجة. حاجة هتسبب مصيبة أو فضيحة لصاحبها. الحاجة دي ما سمعوهاش في ميتينج أو شافوها قدام عينيهم، دي اتسربت لهم عن طريق

الموبايلات أو اللابتوبات، فقبل ما الشفت يخلص صاحب المعلومة دي بعت لهم قاتل مأجور يخلص عليهم، وياخد الأجهزة اللي عليها فضيحته.

اتسعت عينا العميد وفغر فاه، ثم قال كمن رأى أبشع كوابيسه:

- قاتل مأجور؟! عايز تقنعني إن في واحد قتل الشباب اللي زي الورد دول من غير ما يكونوا عملوا له حاجة؟

- دي مش أول قضية أحقق فيها ويطلع المجرم قاتل مأجور مالوش أي صلة بالضحية وعمره حتى ما شافها غير يوم ما قتلها. من سنتين حققت في قضية طالبة اتدبحت في ميدان طلعت حرب بالغلط عشان شبه واحدة كان في قاتل مأجور مكلف بقتلها.

- يا ساتر!

اعترض رياض قائلًا:

- هو ده تخمينك؟

-- عندك تخمين أحسن؟

- تهرب صاحب الكول سنتر والفرَّاش ما لفتش نظرك؟

- في رأيي ده مش تهرب. أكيد اللي قتل الشفت كله قتلهم.

- معتبرهم ضحايا؟

- ده تصوري المبدئي.

- ليه ما تعتبرهمش الجناة؟

تخمين ساذج وغبي وعديم البصيرة!

- أختلف معاك يا رياض بيه. الجريمة دي مش من تنفيذ هاوي، دي جريمة قاتل محترف وآدي الدليل.

أشَرتُ إلى كاميرا من نوعية «Dome» معلقة في السقف، تتوسط عدستها رصاصة عطلتها عن العمل، كباقي كاميرات الكول سنتر الأربع التي تفقدتها أنا والعميد في أثناء جولتنا.

زفر العميد بضيق، وقال وهو يرفع كتفيه من دون أن يخرج يديه من جيبيه:

- على أيامنا الدنيا كانت أبسط من كده. الجرايم كانت جرايم شغف زي ما بيقولوا. قتل بسبب خيانة ولا غيرة ولا خناقة على ورث. إنما قاتل مأجور دليفري، أهو ده اللي عمري ما كنت أتخيل أشوفه غير في الأفلام الأمريكاني!

انضم الشاب خالد إلى رجال الطب الشرعي في الصالة،

تبادلوا بعض التفاصيل ثم اتجه إلى المكتبة الضخمة المنتصبة أمامنا.

سرحتُ قليلًا أتأمل تفاصيل المكتبة ولوجو الشركة المتمثل في مجسم كرتوني لفهد أصفر مرقط بالأسود يرتدي طقم بيسبول أمريكيًّا، ويقف في وضعية التقاط الكرة بقفاز جلدي.

استأذنت العميد ورياض وتركتهما حتى أقترب من التمثال المبتذل، الذي توجد نسخ متطابقة منه في كل غرفة اجتماعات فحصتها في الكول سنتر وحتى في غرفة استراحة الموظفين.

وقفت إلى جوار الشاب خالد وهو يلتقط صورة لتمثال الفهد مستخدمًا الفلاش، فسألني بمجرد أن انتبه لي:

- خدت بالك يا مان إن كاميرات الشقة كلها بايظة؟

ضرب وميض الكاميرا التمثال، فلاحظتُ شيئًا جعلني أبتسم ابتسامة مليئة بالأمل.

أجبت عن سؤال الشاب خالد قائلًا:

- مش كلها بايظة يا مان!

أخرجتُ هاتفي من جيبي، وشغلتُ كشافه، ثم صوبته

نحو عينَي التمثال الداكنتين فلم يتخللهما الضوء، بل انعكس فيهما.

دقق الشاب خالد النظر في حالة العينين ثم همس منبهرًا:

- يا ابن الإيه يا نوح، إيه الاكتشاف الجامد طحن ده. دي مش عيون تمثال، دي كاميرا سرية!

٦

طاف الشاب خالد على كل من في موقع الجريمة ليخبرهم أنني بفطنتي الشديدة ودقة ملاحظتي، وجدتُ كاميرا سرية مخبأة في التمثال الموجود منه نسخة بكل غرفة في الكول سنتر عدا غرفة المدير.

افتخر بي فخرًا طفوليًّا جعلني أتأكد من أنه الوحيد الذي أطمئن بوجوده في أي مسرح جريمة بعد قطز.

مثله مثل العميد نادي، لطالما كان على صلة مهنية بوالدي، ولكن ليس هذا السبب الرئيسي لارتياحي في العمل معه، السبب الأهم بالنسبة إليَّ هو هدوؤه ورصانته، فالشاب خالد رجل لا يهاب الموت، بل صادقه منذ عقد من الزمن.

هذا ما يحتاج إليه ضابط المباحث منذ أن يطأ موقع الجريمة وحتى ينهي عمله ويخرج منه، أتراب لا ترعبهم الجثث، أو يرهبهم الدم، أو تصيبهم الأشلاء بالذعر.

لكل فرد في مهنتنا سبب يجعله يتكيف مع الجثث، سبب الشاب خالد هو أنه رأى منظرًا يجعل رؤية بشاعة العالم مجتمعة من بعده هينة.

منذ عشر سنوات، استدعته المباحث من بيته صباح عيد ميلاده السادس والثلاثين ليصور حادثًا على الطريق، فأخذ كاميرته ومعداته وسماعاته وانطلق.

كان تصادمًا بشعًا بين باص سياحي وشاحنة بضائع على الطريق الصحراوي، لم ينجُ منه سوى ثلاثة ركاب لم يكن من بينهم زوجة الشاب خالد أو ابنه أو ابنته الذين كانوا على متن الباص في طريق عودتهم من بيت شقيقة زوجته في الإسكندرية لتفاجئه بالاحتفال معه بعيد ميلاده.

لم يدرك أنه يصور جثث أسرته إلا حين التقطت عدسة كاميرته صورة قلادة زوجته الذهبية المنقوش عليها اسمه واسمها واسم الطفلين في شكل دائري وبين كل اسم والتالي قلب ذهبي رقيق، وفوقها مسبحة عين النمر التي كانت تطوق عنقها.

بعد دخوله في حالة انهيار عصبي شديد، استفاق وتسلم المسبحة والقلادة من الطب الشرعي بعد تشريح جثة زوجته، فوضعها حول عنقه ولم يخلعها حتى الآن.

منذ ذلك الوقت وهو أهدأ كائنات الأرض، فأي شيء هذا الذي قد يغضب مَن خسر كل شيء في الحياة؟ ما الذي قد يثير استياءه أكثر من أنه لم يبقَ من أسرته سوى سلسلة ذهبية عليها أسماؤهم ومسبحة؟

لهذا، ليس عجيبًا أن أراه الآن يجثو على ركبتيه في حمَّام الذكور ويميل على بُعد قبلة من بقع دم كريهة الرائحة خلفتها جثة وائل، فيصورها ببال رائق كأنها زهرة في بستان ثم ينهض لالتقاط حركة تناثر وتخثر الدم على الحائط مدندنًا أغنية «بختة» بلهجة جزائرية أتقنها من فرط الاستماع إلى الشاب خالد:

جاني على نص النهار
صابني مهموم ومضرار
بالمحنة والتفكار
خاطري عاد اللي بيا

ابتسمتُ وأنا أراه يخرج من حمَّام الذكور وينتقل إلى حمَّام الإناث مستمرًا في غناء مقطعه المفضل من الأغنية بصوت عذب يتردد صداه في حمَّام مسرح جريمة.

تركته يتابع عمله وسرتُ بنية الخروج من الشقة لأتفقد استجواب فادي لزملاء الضحايا، ولكن في أثناء سيري

ملتزمًا بحدود الممر الأمني، ارتطم حسني بكتفي بعنف ثم اعتذر بفتور.

وقفتُ أحدق إليه، وشعرتُ بشرارة ضيق على وشك أن تشعل فتيل غضبي، فأقبل على تصرف أهوج لن يحمد حسني عقباه، ولكن حدث شيء كان بمثابة البصقة التي أخمدت تلك الشرارة.

سمعتُ مواء قط داخل الشقة!

نظرتُ حيث الصوت فوجدت أمامي قطًّا يسير في الطرقة ويقترب نحوي.

صاح العميد من خلفي مذعورًا:

- قط!

ركض نحو القط فكانت ردة فعل الحيوان الفطرية أن يهرب منه بخفة متوغلًا داخل الشقة.

أخذت أنادي العميد وأخبره ألا يبدأ مع القط مطاردة لا شك أن الغلبة فيها ستكون للكائن السريع الرشيق، ولكني رأيت مصيبة أكبر من القط الوحيد الذي يركض في زوايا الشقة قافزًا فوق بقع دماء الضحايا.

رأيت باب الخدم مفتوحًا وهناك ما لا يقل عن سبع قطط

في المطبخ تأكل من كيس الطعام الممزق الذي كان يمسكه علاء قبل مقتله، وتشرب اللبن والماء من الأطباق المخصصة لها في الشرفة.

رائع، المزيد من الفوضى!

أتى صياح حسني غاضبًا:

- مين اللي فتح باب سلم الخدم يا بهايم!

انقض على القطط، يركل الهواء ويتظاهر بأنه سيصيبها إذا لم تخرج.

تبعته إلى المطبخ وأغلقت الباب علينا حتى لا تدلف القطط إلى الشقة، وأخذت أصرفها معه مستخدمًا كل الأصوات والحركات والخدع الممكنة، حتى خرجت القطط كلها من حيث أتت وهي تموء نحونا معترضة على سوء ضيافتنا لها.

خرجت من المطبخ فوجدت نادي يغلق باب الشقة بعد أن طرد القط، ثم استند إلى المقبض يلهث ويمسح العرق عن جبينه بظهر القفاز الطبي.

أتى رياض من أبعد غرفة اجتماعات في الكول سنتر يسألنا عما حدث، ولكن بتر إجابتي عليه سعال العميد العنيف.

عرض رياض على العميد نادي الماء، ولكنه رفض بكياسة وأخذ أنفاسًا عميقة نظم بها إيقاع تنفسه في طريق عودتنا إلى المطبخ لفحص الوضع، بعد أن عاثت فيه القطط الفوضى.

فتحنا الباب، فوقف حسني واضعًا يديه فوق رأسه، ثم نظر إليَّ وإلى رياض قائلًا:

- عايز أعرف مين المهمل اللي فتح البلكونة وباب سلم الخدم؟

سألته:

- متأكد إنك كنت قافلهم؟

استفزه سؤالي، فراح ينادي إيهاب ويأمره بسرعة تحريز الأدلة في المطبخ، وبأن يبقى هناك لتأمين المكان في إهانة خبيثة لنا تشير إلى أننا فشلنا في حماية الأدلة.

آثرتُ الحكمة ولم أعلق على كلامه، وراقبته يبتعد عنا بينما كان للعميد تعليق يفسر من وجهة نظره سبب تلك الفوضى:

- دي طاقة الـ«full moon». فعلًا القمر لما بيكتمل الرجالة بتستذئب!

هذا ما كان ينقصني، عميد كهل يؤمن بالمستذئبين!

- في حاجة يا شباب؟

التفتُّ فوجدتُ الشاب خالد يقبل على ثلاثتنا وهو ينزل سماعاته عن أذنيه وقد فاتته تلك المهزلة، فأجبته:

- معلش هتضطر تصور المطبخ تاني، في قطط دخلت.

مط شفتيه يتدبر ما قلته ويتأمل المكان من حوله ثم هز رأسه بوداعة وقال:

- صحيح، في نقطة دم على الحنفية، غالبًا القاتل استخدم الحوض عشان يغسل إيديه قبل ما يهرب.

سأله رياض:

- لو استخدم الحوض لغسيل إيديه، يبقى حتى لو مسكناه دلوقتي مش هنلاقي عليه مخلفات إطلاق الرصاص؟

- لأ، بس هتلاقيها على أوكرة باب الحمَّام من برا.

نظرنا إليه لنستفهم منه مقصده، فوضح لنا بتواضع لا يليق باكتشافه الجليل:

- القاتل ساب بصمة جزئية شكلها وريحتها بيدلوا على احتمالية وجود مخلفات إطلاق الرصاص.

سأله العميد:

- إنت مش لسه قايل إنه غاسل إيديه؟

- العبقرينو ساب البصمة قبل ما يغسل إيديه على أوكرة الباب من برا.

خرجنا من المطبخ ونادي يقول بابتسامة:

- نحس الـ«full moon» هيتفك ولا إيه؟

تجهم رياض كأنه يستنكر تعليق العميد الخالي من المنطق، ثم ابتعدنا عن المطبخ مقبلين على الطرقة المؤدية إلى الحمَّامين.

ولكن يبدو أن نحس اكتمال القمر لم ينفك تمامًا، فبمجرد أن شعرتُ ببصيص من الأمل، سمعت صوتًا قادمًا من نهاية الطرقة.

صوت شد السيفون وما ينتج عنه من ضوضاء تقلب أمعاء مقعد الحمَّام، ثم صوت صنبور ماء مفتوح.

تجمد أربعتنا في أماكننا من الصدمة حتى أُغلق الصنبور وانقطع صوت هدير الماء.

حاولتُ أن أكذب أذنَي ولكن هرولة حسني بذعر من الصالة وحتى مكان وقوفنا، جعلتني أدرك أن ما سمعته هو مصيبة حقيقية.

رأينا باب حمَّام الإناث يُفتح، ويخرج منه فادي مجففًا

يديه في منديل وهو يغني أغنية «Stromae» الأشهر «Alors, on dance» ويغلق الباب خلفه ممسكًا بمقبضه الخارجي بالمنديل المبتل.

همستُ إلى الشاب خالد أسأله بنبرة تمنٍّ وتوسل:

- ما تقوليش إن البصمة كانت في الحمَّام اللي...

قاطعني وهو يهز رأسه مؤكدًا لي الكابوس الذي جثم عليَّ:

- كانت في الحمَّام اللي زميلك خارج منه.

وقف حسني على بعد ثلاث خطوات من فادي، واجتمع رجال الطب الشرعي معنا في الطرقة يراقبون الملازم الأحمق الذي خرج كأنه لم يرتكب كارثة، حتى انتبه لنظراتنا التي تراوحت بين الصدمة والإنكار والغضب والعجز التام عن التعليق عما صار، وحده حسني كان قادرًا على الكلام، فسأل فادي بهدوء ما قبل العاصفة:

- إنت استعملت الحمَّام؟

أجابه:

- ما تقلقش ما دخلتش الحمَّام اللي كانت فيه الجثة.

أسرع الشاب خالد من دون تعليق ووقف يتفقد مقبض باب الحمَّام بكشافه اليدوي.

انتهى من الفحص وهو يزفر بإحباط ويغلق ضوء الكشاف، فقال رياض:

- طبعًا البيه طمس البصمة!

طرح حسني سؤالًا على الشاب خالد كان الرعد الذي ينذر بهبوب عاصفة عنيفة.

- بصمة؟! إنت لقيت بصمة على باب الحمَّام؟

هزَّ الشاب خالد رأسه آسفًا، فالتفت حسني إلى فادي يسأله:

- إنت عشان تفُك زنقتك تطمس لنا البصمة الوحيدة اللي لقيناها؟!

- يعني أعملها في الشارع زي الكلاب؟

هبت العاصفة.

قبض حسني على تلابيب فادي ودفعه نحو الحائط بعنف وهو يصيح:

- الكلاب بتفهم عنك يا سليل البهايم. إنت مين اللي مسلطك عليا يالا؟

تدخلت أنا والشاب خالد مفرقين بين فادي - فضحه الله كما فضحنا - وحسني.

بمجرد أن خلصته من قبضة حسني، قدته إلى باب الشقة فدفع يدي بغضب وصاح:

- سيبني أنا هدفعه تمن تعديه على ظابط أثناء تأدية خدمته.

- قصدك أثناء تأدية خيبته. أنا مش فاهم إنت جايب البجاحة دي منين.

زفر بضيق فسألته عما يهمني ويشغلني حتى لا تثور ثائرتي أنا الآخر:

- جمعت أقوال زمايل الضحايا؟

- آه، أسمعهالك؟

- إنت ماكتبتش الأقوال؟!

- هكتبهالك دلوقتي. بس بأمانة مفيهاش أي معلومة مفيدة. كلهم ما يعرفوش حاجة.

أشعر بأنني لو أجبرت على كبت غضبي الذي يثيره فادي بين كل فينة وأخرى، سأصاب بجلطة.

قلت له بنبرة حادة ولكن بصوت خفيض:

- أنا مش قلتلك تكتب الأقوال كلها؟ إيه كيفك في حفظ الحمير ده؟

- لا لا لا، أنا ما سمحلكش تكلمني كده! إنت فاكر نفسك هـ...

- التزام يا حضرة الملازم وامنع الكلام! أنا جِبت آخري منك. خد بعضك واطلع على صلاح في المستشفى يشوفلك شغلانة معاه. مش عايز ألمح قفاك هنا تاني.

احمر عنقه وكذلك أذناه من فرط الغضب، وأخذ يضغط على فكه بمجرد أن أعلنت له عن سلطتي عليه وأمليت أوامري التي تستوجب منه الطاعة.

استسلم لتسلسل القيادة واضطر إلى أن يطيعني وينزل على السلالم وهو يخلع غطاء شعره وقفازيه وغطاء حذائه ويلقيها على الأرض باعتراض طفولي.

كدتُ أستدير لأعاود الدخول إلى هذا السيرك الذي نعمل فيه حتى فاجأني وجود نادي ورائي يقول:

- مش عارف أقولك إيه، ربنا يعينك على الناس اللي معاك.

تفقد الساعة في هاتفه ثم قال متعجلًا:

- أنا لازم أتحرك دلوقتي.

كنت على وشك أن أشكره على بقائه معنا على الرغم

من حالته الصحية المتدهورة، ولكن أقبل رياض علينا وسألني:

- فادي ده اللي أخد أقوال الشاهدة؟

- مظبوط. هو الوحيد اللي بيتكلم فرنساوي.

- لازم نستجوب الشاهدة تاني فورًا، أنا مش واثق في أي حاجة زميلك ده عملها.

- إنت بتعرف تتكلم فرنساوي يعني ولا عايزنا نستجوبها فورًا إزاي؟

تجلى على ملامحه عدم استلطاف تهكمي، فالتفت إلى نادي يسأله:

- قلتلي إنك خريج مدارس فرنساوي؟

سعل العميد فجأة فازداد تعرق جبينه وبدأت أصابعه ترتعش، فدس يديه في جيبه فيما يبدو أنها محاولة لإخفاء وهنه عنا.

ليس من الإنساني أن نطلب منه المزيد من الخدمات وهو في تلك الحالة الصعبة.

قلتُ لرياض:

- دور النجدة انتهى معانا. التحقيق والاستجواب في المرحلة دي من مسؤولية المباحث و...

- مسؤولية المباحث؟ فعلًا؟!

اللعنة على فادي وصلاح لأنهما وضعاني في هذا الموقف المخزي أمام النيابة.

عضضتُ خدي من الداخل بغيظ حتى شعرتُ بطعم الدم في فمي، فحررتُ لحمي من بين ضروسي بينما استأنف رياض حديثه مع نادي:

- ها يا مسيو، الفرنساوي بتاعك هيسعفنا ولا لغتك صَدِت؟

رماه العميد بنظرة نارية ثم وضع يده على كتفي وسألني:

- محتاج تستجوب الشاهدة تاني ولا واثق في شغل زميلك؟

يصعب عليَّ أن أقول أمام غريب أنني لا أثق في مهارة زميلي، فاخترتُ الصمت وقد كان خير إجابة فقال العميد:

- مفهوم، يلا بينا.

خرجنا من الباب ونادي يخلع قفازيه وغطاء رأسه فانسلت خصلات من شعره البني الغزير على حاجبه. كاد وكيل النيابة أن يلحق بنا ولكن العميد استوقفه قائلًا:

- أنا شايف إنك تفضل هنا يا رياض بيه، الشاهدة مش هتستحمل كاريزمتك.



ركبنا مصعدًا أنيقًا يشبه المصاعد العتيقة التي تراها في الأفلام المصرية الكلاسيكية، ووصلنا إلى الطابق الثاني في عمارة «كونياك».

طرقنا باب بياتريس، ففتحت لنا بعينين محمرتين من فرط البكاء والصدمة.

اعتذر منها العميد بالفرنسية وقدمنا إليها ووضح لها سبب زيارتنا، فرحبت بنا ودعتنا إلى الدخول إلى شقتها.

أيقظت شقتها شيئًا دُفِنَ في ذكرياتي البعيدة منذ أيام الطفولة.

في إحدى حلقات توم أند جيري، ظهر صديق لتوم، كان قطًّا أسود قذرًا يأكل من النفايات ويقطن في حاوية قمامة. مسكن هذا القط الأسود أنظف من شقة بياتريس.

كان بيتها فوضويًّا تفوح منه رائحة بول قططها الأربعة، وبراز عصافيرها التي تزقزق في أقفاصها الواسعة، وعبق فرو أرنبها الأبيض النتن الذي يقضي حاجته على الأريكة.

في أقل من دقيقة واحدة من دخولنا، أعتقد أن نظري قل درجة من غيمة الصنان التي تفوح من مقلب القمامة الذي نقف فيه الآن.

حاولتُ أن أكف عن التدقيق في تفاصيل المكان، وأن أخفي انزعاجي من ثيابها المبقعة الملقاة في كل حدب وصوب، وكتبها المتفرقة بين زوايا الصالة المختلفة، وأتجنب الدعس على قوارير المياه الخالية، والأكواب المتسخة، وعلبة البيتزا الفارغة الملقاة على الأرض.

ما لم أتمكن من تجاهله هو أن قطتها الرمادية وقفت أمام العميد وأخذت تتقيأ كرة فرو فوق حذائه الغالي.

صاح العميد في بياتريس بحدة، فهزت رأسها فيما يبدو أنه اعتذار، وانتشلت قططها وأرنبها وحبستها في غرفة.

في أثناء ذلك، علق العميد وهو يضع يده على فمه كأنه يجاهد ألا يتقيأ من فرط الاشمئزاز:

- إيه الزريبة دي!

- إنت كده بتهين الزريبة.

عادت بياتريس إلينا لتقودنا إلى المطبخ الذي يأبى جرذ المجاري الأجرب أن يتحمل العيش فيه.

غطى العميد أنفه بكفه فرارًا من بشاعة الرائحة، وقال شيئًا بعصبية للشاهدة، ثم ترجم إليَّ إجابتها:

- كانت مسافرة والتلاجة باظت فالأكل واللحمة نتنوا وعملوا الريحة بنت الكلب دي.

كان آخر همي أن أعرف مصدر الرائحة، فطلبت منه أن يجعلها تشرح لنا سريعًا ما حدث قبل أن يسقط أنفي من مكانه.

نقل لها العميد طلبي بلغة عذبة كموسيقى الراديو الأوروبي التي تنصت إليها جدتي، فأجابته بأنها ستمثل لنا المشهد بدقة.

وقفت عند عتبة المطبخ وهي تروي للعميد أنها ضغطت على زر الإضاءة ولكن المصباح لم يضئ لأن اللمبة احترقت، فأكملت طريقها ممسكة بالهاتف وهي تستخدم كشافه وتبحث عن برطمان القهوة سريعة التحضير على طاولة فوضوية مليئة ببقع لا يعلم مصدرها إلا الله، ثم ضغطت على زر الغلاية الكهربائية.

كانت الغلاية على رخامة أسفل نافذة المطبخ، لذلك وقفت تنظر أمامها من النافذة في انتظار غليان الماء فرأت علاء يميل ليضع الطعام للقطط، وإذ بالمجرم يأتي من ورائه وينهي حياته برصاصة في رأسه.

هربت القطط من السلم ما عدا قطًّا واحدًا شجاعًا هجم على القاتل، فإذا بالمجرم يهشم رأسه بالدعس المتكرر عليه بقدمه.

ارتعشت نبرتها ثم هربت الدموع من عينيها الزرقاوين، وانزلقت على خدها الذي احمر وهي تستحضر لنا تفاصيل الواقعة، فدفنت وجهها بين كفيها.

ترجم نادي ما وصفته الشقراء المغتربة بشكل مقتضب وعملي واختتم قائلًا:

- بعدها خرجت من شقتها بتصرخ، فالجيران اتلموا وبلغت الإسعاف والنجدة.

خرجنا من المطبخ ووقفنا في الصالة في صحبتها، أدون شهادتها حتى أنهيت الكتابة وسألت نادي:

- ممكن تسألها عن مواصفات القاتل؟

أخرج منديلًا من جيبه ناوله للشاهدة المنهارة، فمسحت دموعها بينما يترجم لها سؤالي.

أخذت نفسًا عميقًا ثم تحدثت بسرعة تفوق سرعة راب ويجز ومروان بابلو مجتمعين.

شَبَّت على أطراف أصابعها ورفعت يدها فوق رأسها

كثيرًا وأشارت إلى جذعها ثم وجهها والعميد يهز رأسه من دون تعليق.

بمجرد أن أنهت الكلام عادت إلى المطبخ تملأ لنفسها كوبًا من الماء، فهمس العميد إليَّ ممتعضًا:

- عزمت تجيبلنا ميه بس أنا رفضت بشياكة. أنا أشرب مية نار ولا أشرب حاجة من المطبخ القذر ده!

- المهم مواصفات القاتل يا سيادة العميد. إيه كل الرغي اللي قالته ده؟

- قالت طوله مش أقل من متر خمسة وتمانين سنتي، جسمه رياضي، واخد تان، وشعره...

- إزاي عرفت لون بشرته وشعره والقاتل كان مغطي وشه بماسك صوف أسود؟

- ما قالتش إنه لابس ماسك، بتقولي شافت وشه.

- بس فادي ما قالش كده!

أنا حقًّا مرهق ولكن ليس إلى درجة أن أنسى الأقوال والتفاصيل التي دونتها!

قلبتُ صفحات دفتري عودة لما قاله فادي مستعرضًا ذاكرته الفولاذية، حتى وجدت الصفحة وقرأتها على نادي.

حكَّ رأسه ثم قال وهو يتنهد بضيق:

- أنا ما كنتش عايز أقول حاجة بما إني مش من فريقكم، بس بصراحة أنا لما اتكلمت كلمتين مع فادي لقيت إن الـ«accent» بتاعته سيئة جدًّا، والـ«grammaire» عنده ضعيف.

- إزاي! ده صلاح بيقول إنه خريج الفرير!

- مش مهم المدرسة، المهم الممارسة. الفرانسيه لغة عزيزة، لو مش بتتكلمها كتير هتضيع منك. ممكن يبقى ما فهمش بياتريس لأنها من «Marseille» ودول لكنتهم صعبة وبعيدة عن الفرانسيه التقليدي اللي بناخده في المدارس.

لم أستوعب أن فادي متعجرف وغبي وتافه إلى الدرجة التي تجعله يرفض الاعتراف بأن فرنسيته ضعيفة، فتكون النتيجة أن يحرف أقوال الشاهدة الوحيدة هذا التحريف المجحف!

- أكمل؟

هززتُ رأسي إيجابًا وأكملت تدوين ما يقوله:

- واخد تان، شعره بني محمر كثيف، مناخيره شبه مناخير جيرار ديبارديو.

كان واضح على وجهي أنني لا أعرف من هو جيرار ديبارديو، فزفر نادي فيما بدا لي أنه استنكار لجهلي.

فتح جوجل من على هاتفه وكتب الاسم بالفرنسية على محرك البحث فظهرت لي صورة لممثل حدقت إلى وجهه مطولًا حتى أدركت أنه بطل فيلم المغامرات الفرنسي «Astérix et Obélix»، الذي كانت جدتي تجعلني أشاهده في طفولتي عسى أن أتعلم أي كلمة فرنسية.

منعت طوفان ذكريات الطفولة من أن يجرفني وركزت على السبب الرئيسي لتأملي صورة هذا الممثل، أنفه.

إنه حقًّا أنف مميز فهو يبرز بمنتصف وجهه، ثم ينتهي طرفه باستدارة ضخمة يشقها خط لا أعرف إن كان عِرقًا نافرًا أم ندبة إثر جرح قديم. المهم أنه أنف كفيل بأن يكون العلامة الفاضحة لهوية صاحبه.

هكذا اكتمل عندي بروفايل القاتل الذي أبحث عنه.

أبحث عن قاتل مأجور ينفذ عمله باحترافية لم أشهد لها مثيلًا منذ أن عملتُ بالمباحث الجنائية.

قاتل لديه ما يكفي من الدقة لاقتناص أرواح ضحاياه السِّت برصاصة لا تحيد عن مسارها.

قاتل خفيف الحركة وسريع إلى درجة أن ضحاياه لم تتسنَّ لهم فرصة للنهوض عن مقاعدهم ومقاومته.

قاتل مخضرم إلى درجة أنه أصاب ضحية من وراء باب، ونرجسي إلى درجة أنه لم يفتح الباب ليتأكد من إصابة الهدف، لأن غطرسته تجعله واثقًا بأنه مستحيل أن يخطئ.

قاتل لا يتبع نمطًا واحدًا في قتل ضحاياه وإن كان يستخدم السلاح نفسه.

قاتل متعجل وغير متأنٍّ مما جعله ينفذ مهمته من دون أن ينتبه لوجود كاميرات مراقبة سرية في مكتبة كل غرفة، ويرحل من الكول سنتر قبل أن يتأكد من موت بسنت.

قاتل منظم وعملي لا يلجأ إلى طرق درامية انفعالية لتأدية مهمته، ومع ذلك فهو يخبئ شيئًا من السادية خلف قناع القاتل المحترف بارد الأعصاب الذي يرتديه، وإلا ما كان قتل القط الذي هاجمه في المطبخ بتلك الوحشية.

أبحث عن قاتل طويل، جسده رياضي، بشرته سمراء سمارًا صناعيًا، شعره كستنائي كثيف، وأنفه مميز.

أبحث عن قاتل يشبه زميلي الجديد، فادي جاد.

* * *

احتفظت بخواطري المتوجسة لنفسي في أثناء خروجنا من عمارة «كونياك».

رن هاتف العميد فأشار إليَّ معتذرًا لأنه يجب أن يتلقى المكالمة على انفراد.

ابتعدت عنه بضع خطوات حتى جذبت أنفي رائحة مخبوزات طازجة مثيرة للشهية.

نظرت إلى يساري فوجدت حلواني سميراميس فقررت أن أجلب شيئًا يسد جوعي، وأشتري لجدتي المخبوزات التي طلبتها.

دخلت محل الحلواني العتيق الذي نشترك أنا وهو في أن الزمن أفقدنا بهجتنا، ولكنه لم يسلب تفانينا في عملنا.

لم يعد الحلواني الذي اصطفت أمامه طوابير نجوم ومشاهير المجتمع الراقي بالساعات، وتباهت هوانم جاردن سيتي بشراء السابليه والسويسرول والكيك منه، صار محلًّا باهتًا يقتصد في إضاءته، وأرففه وثلاجاته خاوية إلا من بضعة أصناف توجد من كل منها كمية شحيحة، إلا أن جودته ما زالت تفوق أي مخبز جربته في المنطقة.

طلبت لنفسي باتيه بالجبن وكرواسون بالشوكولاتة لجدتي، وكعك بالفانيليا للعميد المسكين.

دفعت الحساب للمسن الجالس على الكاشير وعلى يمينه شعارات فرنسية لا أفهمها، وقائمة المخبوزات باللغتين العربية والفرنسية، ثم خرجت من المحل.

سرتُ على الرصيف آكل الباتيه الطازج الذي عالج بزبدته الفلاحي وبجبنه السائح وبعجينه الدافئ يأسي ومقتي لزماني ومكاني، فأنهيته في بضع قضمات نهمة مسافة خروجي من المخبز وحتى وصولي إلى حيث يقف العميد وقد أنهى مكالمته، ولكنه لم ينتبه لوقوفي خلفه من فرط السعال.

كان يسعل بعنف موليًا ظهره إليَّ ومغطيًا فمه بمنديل، فبدأت أشك في أنه يعاني من مرض صدري شرس، وتأكدت شكوكي حين رفع منديله عن فمه ليتفقده ورأيت فيه بقع دم.

طبق المنديل وأعاده إلى جيبه، ثم التفت فتفاجأ بوقوفي وراءه.

توتر كأنني ضبطته في وضع مخل، مما جعلني أطرح عليه أغبى سؤال يمكن أن يُطرح على إنسان يسعل دمًا:

- إنت كويس؟

ابتسم ابتسامة رجل استسلم لمرارة أيامه، ثم أجابني بصوت أنهكه التعب:

- أنا كويس، يدوبك سرطان في الرئة والكبد.

استند إلى حائط محل مغلق تقول لافتته الخضراء إنه في يوم من الأيام كان معمل تحميض صور فوتوغرافية، ولكن شاء الله أن يتحول إلى مخبز عيش سياحي لا يبالي صاحبه بتغيير لافتته الباهتة.

أخرج العميد من جيبه سيجارًا وثقابًا طويلة مخصصة لإشعاله.

دخنه ببطء وهو يسعل بقوة بين كل نفس ينفثه والآخر، كأنه ينتقم من رئتيه أو يسخر من السرطان الذي ينهش بدنه الهزيل.

- مش التدخين خطر على الـ...

- تصدق أنا عمري ما حطيت سيجارة في بقي إلا بعد ما الدكتور قالي فاضلك في الدنيا ست شهور.

باغتتني العفوية التي يتكلم بها عن موته الوشيك، فشعرتُ بالحزن عليه وبالخزي من نفسي، هأنذا أتباكى على

الوضع الذي صرتُ فيه أنا ودليلة ناسيًا أن هناك ابتلاءات أعظم في الحياة. هناك رجل في منتصف الأربعينيات حلَّ خريف عمره مبكرًا فصار لا يقدر على إنهاء جملتين من دون أن يسعل دمًا، وستخلِفه بعد موته أرملة ويتامى ومع ذلك يذهب إلى عمله ويمارسه بتفانٍ، بل ويؤثر مساعدة شخص مثلي، بدلًا من أن يذهب إلى طبيبه لمتابعة حالته.

- هقابل باباك كمان أربع شهور، تحب أقوله حاجة؟

لم تكن مزحة لطيفة، الوضع كان شديد القتامة والبؤس وقد ترك أثره على ملامحي، فقرأ نادي ذلك على تعبيراتي وقال:

- ما تبقاش نكدي الموت بداية جديدة. حياتنا دي بتنتهي بموتنا، بعدها بنبدأ حياة مختلفة باختيارات تانية وبداية ونهاية مختلفين.

لم أقتنع بتلك الفلسفة التي بدت لي بوذية أكثر من اللازم، ولكن إن كان هذا ما يؤمن به ويردده حتى يخفف عن نفسه رعبه من الموت، فمن أكون لأجادله؟

أخمد سيجاره ومشط شعره بيده، ثم قال بابتسامة بشوش تبرز وسامته السينمائية وهو يقف مبعدًا ظهره عن الحائط

ويخرج من جيبه علكتين بالمستكة، عرض واحدة عليَّ فأخذتها منه حتى لا أحرجه بينما ألقى الثانية في فمه وأخذ يعلكها، فقلت له:

- متأجل اللبانة دي، أنا جبت لك كيك؟

ابتسم، ثم وضع يده على كتفي وقال:

- أنا سعيد إني اشتغلت مع ابن يحيى الألفي. كاريري جمعني برجالة كتير وقليل، عمري ما احترمت حد قد باباك. صحيح، إنت لسه على تواصل مع صاحبه أنور؟

- طبعًا.

- ابقى قوله الواد بتاع الليسيه بيسلم عليك، وأي حاجة هتحصل أنا غير مسؤول عنها. أنا حافظت على اتفاقي معاه.

- اتفاق إيه؟

- دي حاجة من شقاوة زمان. قوله بس كده وهو يفهم.

بسط راحته نحوي وقال بكاريزما طاغية:

- «Enchanté» يا مسيو نوح. أتمنى لك عمر طويل وحياة هادية ما تضطرش تقابل فيها حد زيي.

لم أفهم مقصده، أعتقد أنه يهذي من فرط الإرهاق، ولكني

صافحت يده المنبسطة أمامي، ثم عانقته عناق صديق قديم تعلم أنك لن تراه مجددًا.

ربت العميد نادي الناجي على ظهري بحميمية، ثم ابتعد وهو يصنع فقاقيع من علكة المستكة ويدندن لحن أغنية فرنسية لا يمر يوم من دون أن تشغلها جدتي وتكرر كلماتها بفرنسية ممتازة، أغنية إيديت بياف الأشهر «La Vie En Rose».

٧

لم أكن مُهيأ نفسيًّا بعد للعودة إلى هذا السيرك اللعين.

بقيت في الشارع أشعل سيجارة استحققتها عن جدارة بعد كل الغباء الذي تحملته من الآخرين.

وقفت أدخنها مستندًا إلى شجرة تقابل محل الحيوانات الأليفة حيث الحوض الضخم الذي تسبح بداخله أسماك ذهبية وسوداء وزرقاء، بينما تقف في الشارع قطة مشمشية تهجم على الزجاج كأنها تحاول صيد السمك من حوضه.

زفرتُ دخاني وأنا أضحك، ثم ضممت سيجارتي بين شفتي وأخرجت هاتفي من جيبي لأصور هذا المشهد الكارتوني الذي أعرف أنني إذا أرسلته إلى دليلة الآن ستنسى أنها طلبت «بريك» من علاقتنا، وستضحك وتفتح معي حوارًا طويلًا حول حبها للقطط.

علقت حقيبة المخبوزات التي اشتريتها للأسرة على

رسغي وبدأت أصور، ولكن حتى تلك الاستراحة الفكاهية القصيرة لم تكتمل، فهناك طائر لا أعلم أكان عصفورًا أم خفاشًا أم بومة تليق بنحس الليلة، قرر أن يترك جاردن سيتي كلها ويقضي حاجته على كتف العبد لله.



أقسم أن قط شارعنا ابتسم شامتًا فيَّ وهو يراني أقترب من عمارتي ببقعة عصير حمراء عند صدري، وبراز طير على كتفي، وشرر الغضب يتطاير من عينَي.

هزَّ مؤخرته بخبث كأنه يقول لي لقد أفقدتك حظك لحظة دعسك ذيلي.

مررتُ بجواره، ثم سببته بصوت مسموع في أثناء دخولي إلى العمارة وحتى صعودي بالمصعد إلى طابقنا.

سمعتُ من وراء باب شقتنا وأنا أبحث عن مفاتيحي، صوت التلفزيون ينطق باللغة اليابانية المليئة بالصريخ والصياح الدرامي، فعرفتُ أن لارا تعيد مشاهدة فيلم الأنمي.

فتحت الباب فاستقبلتني رائحة الفشار الطازج والسكر والعجين وصوت إيديت بياف قادمًا من راديو المطبخ فعرفتُ أن جدتي تطهو لنا شيئًا.

دخلتُ فوجدتها تقف أمام البوتجاز مولية ظهرها إلى الباب، تعد الكريب سوزيت الذي تشتهر به، بينما تغني مع الراديو بانسجام شديد جعلها لا تنتبه لدخولي حتى ناديتها:

- سونة.

شهقت مرتعبة إلى درجة أنها أسقطت المغرفة التي تسكب بها خليط الكريب في المقلاة، وراحت تسب وتلعن بالفرنسية.

ملتُ لأنتشل المغرفة بالنيابة عنها وأنا أعتذر عن إخافتها، ولكنها بمجرد أن نظرت إليَّ صرخت بهلع أكبر وقالت:

- إيه اللي على صدرك ده؟ دم؟ إنت اتعوَّرت؟

- لا يا حبيبتي ده عصير.

هدأت ولكن كان الأوان قد فات، ركض طارق ونادية إلى المطبخ على صوت جدتي فتفاجآ بوجودي وبهيئتي. أضافت جدتي وهي تنظر إلى كتفي اليسرى بامتعاض:

- وإيه القرف اللي على قميصك ده كمان؟ اجري حطه في كيس وارميه في الزبالة.

- حاضر يا تيتة! شكرًا على حسن الاستقبال. اتفضلي الكرواسون اللي طلبتيه.

انتشلت مني حقيبة سميراميس وتفقدت كرواسون الشوكولاتة الهلالي الشكل بخيبة أمل، وقالت:

- أنا قلتلك عايزة «pain au chocolat»، ده «croissant au chocolat»!

- مش فاهم.

- شرحتلك ميت مرة إن الكرواسون على شكل هلال، والـ«pain au chocolate» مستطيل شبه الباتيه.

- وده يفرق في الطعم يعني؟

- كفاية جهل يا نوح!

تقبلتُ الإهانة بروح رياضية، وكدتُ أن أخرج من المطبخ لأغير ثيابي وأنظف نفسي، ولكن نادية سألتني بلهفة أعرف دافعها:

- خلصت شغل؟

- هشرب قهوة ونازل تاني.

- طب يا حبيبي، غيَّر إنت على ما أعملك قهوتك.

أنقذتني جدتي بقولها:

- قهوتك تقرف، أنا هعملهاله. اخرجوا بقى زحمتوا المطبخ.

ألقيتُ نحوها قبلة امتنان في الهواء، فابتسمت بملامحها الحنونة ثم اتجهتُ إلى الحمَّام.

خلعتُ قميصي ووضعتُ رأسي أسفل صنبور الماء البارد حتى أتخلص من صهد الأفكار السلبية التي تنفث دخانها داخل عقلي.

جففت شعري وأعدت تسريحه، ثم خرجتُ من الحمَّام أمسح قطرات الماء التي نزلت على صدري فقابلت تالا ابنة السنوات السبع في الطرقة.

تبعتني إلى غرفتي، تروي لي بحماس منقطع النظير عن أحداث فيلم المحقق كونان ولوبين اللص الذي شاهدناه معًا ما لا يقل عن سبع مرات.

أخرجتُ من خزانتي قميصًا أسود سيكون كفيلًا بإخفاء أي بقعة أخرى محتملة، وتالا تقلد لي حركات وأصوات كل شخصية وتسرد بالتفصيل كيف تمكن لوبين - عدو كونان ذو الألف وجه - من التسلل إلى خزانة البنك، وسرقة ياقوتة الملكة الحمراء، وجعل من أمهر محققي اليابان أضحوكة.

تفاعلتُ معها وتظاهرتُ بأنني متفاجئ بكل جملة تقولها حتى أتممتُ تزرير قميصي، وخرجنا إلى غرفة المعيشة

الباردة بفضل المكيف والتي تفوح منها رائحة قهوة جدتي.

جلستُ على الأريكة بعيدًا عن نادية، فإذ بها تنهض عن مقعدها لتجاورني، وكذلك فعلت جدتي فحشرتاني بين فخذيهما.

حملت تالا صحن الفشار ووضعته على فخذي حتى آكل منه، فحملتها على حجري بينما يدغدغ طارق يحيى وياسر فيضحكان ضحكات ملائكية لا تليق بتصرفاتهما الشيطانية.

هممتُ أن أمد ذراعي لآخذ فنجان القهوة من على الطاولة، ولكن نادية أسرعت تناولني إياه، فأخذته منها وأنا أقول بقلة صبر:

- أنا مش رايق أرغي في أي حاجة دلوقتي. سيبيني أطفح قهوتي وأنزل.

زمت شفتيها وسكتت ولكن ظلت عيون كل الراشدين في الغرفة تتربص بي بينما يتابع الأطفال التلفزيون.

ارتشفتُ رشفتين وأنا أراقب وجوههم، بدا لي كأن كلًّا منهم يحمل كلمة في جوفه، ويفكر في أكثر الطرق تهذيبًا لبصقها في وجهي.

ضايقني ثقل نظراتهم وصمتهم المريب، فزفرتُ قائلًا باستسلام أبغضه:

- خلونا نخلص. خير؟

اندفعت نادية تقول:

- إحنا هنيجي معاك إنت ودليلة يوم الخميس و...

- هشوف ده يناسبها ولا لأ.

قالت جدتي:

- طبعًا يا حبيبي. لو وجودنا هيوترها فإحنا متفهمين.

علقت نادية بعصبية:

- وجودنا يوترها ليه؟ إحنا رايحين نطمن على مستقبلها هي وأخويا.

أجبتها ببرود يستفزها:

- مفيش حاجة تقلقك على مستقبلي يا نادية.

- خطيبتك عندها أورام في الرحم وتقولي مفيش حاجة تقلقني على مستقبلك؟

رمقتها بضيق فصاحت فيها جدتي قبل أن أعلق:

- نادية! أنا قلتلك إيه؟

- يا جماعة أنا والله زعلانة على دليلة ومتعاطفة معاها، بس أنا عارفة أخويا اللي مربياه. نوح روحه في العيال. يرضي مين بس إنه يحرم نفسه من الخلفة وهو في عز شبابه كده!

وكزتها جدتي وقالت:

- إحنا لسه مش متأكدين من إنه هيتحرم من الخلفة، إن شاء الله عملية استئصال الأورام تعدي على خير وربنا يرزقهم بالذرية الصالحة.

زفرتُ بضيق، ثم دعكت عينَي المتعبتين، وقلتُ بهدوء يحمل الكثير من المرارة:

- قلتي اللي في قلبك يا نادية؟ ياريت تسكتي بقى.

- إنت ليه مش مدينا فرصة نتناقش ونفتح عينيك على واقع إنت معمي عنه؟

صحتُ بغضب وأنا أضع الفنجان على الطاولة بعنف:

- إنتِ لسه عارفة بتعب دليلة من كام ساعة وعمالة تتفذلكي، لكن أنا في الحكاية دي من سنة وعديت معاها بكل الظروف. أنا بحب دليلة يا نادية وهتجوزها، مش بس لو طلعت من العملية ما بتخلفش، دي لو طلعت منها براس بغل هتجوزها برضو. الرؤية وضحتلك ولا استيعابك في ذمة الله؟!

- إنتَ كده مش بتحبها، إنت كده معتوه!

- يا ستي أنا معتوه، خليكي في حالك.

- ما إنت حالي يا غبي! إنت بتحبها الحب ده كله وهي ربطاك بيها في وضعها الصحي ده. موقفها في منتهى الأنانية و...

- ما تعكيش يا نادية! اللي بتقولي عليها أنانية دي كانت من ساعتين بتتحايل عليا نفركش وأنا اللي متمسك بيها، ولولا إني عارف إن عندك بقرش أخلاق كنت قلت إن أنتِ اللي كلمتيها وسميتي بدنها بكلمتين من بتوعك عشان تسيبني.

- إنت بتعلي صوتك على أختك الكبيرة عشان خطيبتك؟ أومال لما تتجوزها هتعمل فيا إيه؟

هكذا بدأت المشاجرة رسميًّا، فتبادلنا الكثير من الإهانات السطحية المبطنة بشيء من الاحترام الذي تجبرك عليه الأخوة. نلقي على بعضنا اتهامات غير مؤذية، ونسب بعضنا بألفاظ مناسبة للمعايير الرقابية فلا تخدش حياءً ولا تجرح كرامة.

استمرت تلك المشادة الكلامية التي تليق بأفلام ماسبيرو زمان حتى صاح طارق فينا بحدة:

- خلوا عندكم دم. تيتة قاعدة!

صمت كلانا والتفتنا إلى جدتي التي تأثرت بالموقف كثيرًا حتى اغرورقت عيناها بالدموع.

اعتذرنا إليها على الفور، قبلتُ يديها بينما قبلت نادية جبينها، وألقت تالا بنفسها في حضنها وأخذت تربت على ظهرها بحنان.

قالت جدتي جملتها المعهودة التي تفض بها أي نقاش محتد بيني وبين نادية:

- بتتخانقوا كده قدامي، أومال لما أموت هتعملوا إيه؟

تمنينا لها دوام الصحة وطول العمر، واضطررتُ إلى أن أعتذر على مضض من شقيقتي صاحبة اللسان الأكثر سلاطة في جاردن سيتي والأحياء المجاورة، لأطيب خاطر جدتي، وأطمئنها على مستقبل أخوَّتنا اللعينة كما يحدث بعد كل شجار بيننا.

مسحتُ لها دموعها فأخذت تدعو لنا بالصلاح والخير، ثم قال طارق بينما يركض ياسر ويحيى حول كرسيه في حلقات مفرغة من دون أي هدف:

- ربنا يقوِّم دليلة بالسلامة ويغنيك بيها عن الدنيا بما فيها يا نوح. إحنا نفسنا تبقى في أسعد حال بس ده ما ينفيش

إن محدش هياخد أكتر من رزقه، فيا ريت يا جماعة ما نفتحش الموضوع ده إلا لو نوح احتاج يكلمنا فيه.
عَلي يا تالا التلفزيون عشان خالو يتفرج معاكي على الكارتون لحد ما يخلص قهوته.

في تغير عجيب لميزان القوى، خضعنا جميعًا لطارق.

نظرت إليه بامتنان، فابتسم إليَّ كما يليق بأخ كبير.

استأنفتُ ارتشاف قهوتي السادة بينما نهضت جدتي هي ونادية لتستكمل إعداد الكريب، وأعتقد لتوبخ نادية على أسلوبها معي.

جلست تالا مجددًا على فخذي مصرة على أن تطعمني حبات الفشار، فتوقف يحيى وياسر عن ركضهما الشيطاني وقفزا إلى جواري على الأريكة يدسان يديهما في الفشار بعشوائية حتى انقلب الصحن وتناثرت حباته، فسقط بعضها في فنجاني الذي كان فيه رشفة قهوة أخيرة لم يُقسم لي أن أرتشفها.

صاحت تالا في أخويها متقمصة تسلط أمها وعصبيتها، فأتت نادية من المطبخ وانتبهت للصحن المقلوب على الأريكة.

اندفع طارق يجمع الفشار من الأرض ويهدئ نادية حتى

لا تبتلع ابنيها، فاحتمى يحيى في المساحة بين ظهري والأريكة وهو يضحك ضحكات شريرة، واختبأ ياسر تحت إبطي يذرف دموعًا زائفة يستجدي بها أمه في كل شجار، بينما أسندت تالا رأسها إلى صدري بدلال وهي تعيد الفشار المسكوب على الأريكة إلى الصحن.

كانت فوضى عارمة، فوضى طفولية وحميمية عزيزة على قلبي لطالما تاقت إليها نفسي.

فوضى شاء الله ألا أحظى بمثلها أبدًا.



في طريق عودتي إلى عمارة سيف الدين، شعرتُ بهاتفي يهتز في جيبي وأنا أدخن ثاني سيجارة لي في الساعة نفسها معترفًا بفشلي الذريع في مقاومة إدماني للنيكوتين.

كان المتصل آخر شخص أتوقع أن أخطر على باله ويقرر أن يهاتفني، أمي.

من الصدمة، وقفتُ في مكاني، السيجارة في فمي والهاتف في يدي أفكر ماذا أفعل، أتجاهلها كما تجاهلتني طيلة عمري، أم ألبي نداءها عسى أن تكون في حاجة إليَّ.

فيمَ قد تحتاج إليَّ؟ أكيد تتصل بي من أجل زوجها، لا بد

أنها تحتاج إلى مساعدتي بخصوص شقته التي وقعت فيها الجريمة.

لا شك في ذلك، أمي تتصل لمصلحة زوجها حبيب القلب وليس لأي سبب آخر.

استغرقتُ في أفكاري المُرة حتى تحولت المكالمة الجارية إلى مكالمة فائتة، فشعرتُ كأن ثقل الكون قد انزاح عن صدري.

أعدتُ الهاتف إلى جيبي واستأنفتُ سيري وتدخيني، يسيطر عليَّ شعور بأن الحياة ضاقت بي، وبدلًا من أن أرتمي على صدر والدتي منتظرًا منها دعوة صادقة وكلمة طيبة مثل أي ابن طبيعي، مجرد رؤية اسمها زادني كدرًا.

شعرتُ بضيق في صدري، واختناق في حلقي، وبمرارة في فمي، وبحرقة في مقلتَي.

إلى أين يلوذ المرء حين تضيق به سبل الوصول إلى الطمأنينة كافة؟

يلوذ إلى خليله وأنيسه، قطز.

كانت الساعة متأخرة. في العادة ما كنتُ لأبالي بكم الساعة قبل أن أتصل به، ولكن تغير الوضع الآن.

راسلته عبر الواتس آب أسأله إن كان مستيقظًا، وفي أقل من دقيقة وجدته يهاتفني.

بمجرد أن وضعت الهاتف على أذني، جاءني بكاء طفل حاد كاد أن يفقدني سمعي، وفي الخلفية أغنية «Baby Shark» التي أصابت أطفال العالم بالهوس، وقطز يقول متوسلًا:

- يا حبيبي استهدى بالله. ورحمة أبوك لتبطل عياط عايز أتكلم. آلو، يا نوح.

- يا عم طمني عليك. بقالي يومين مش سامعلك حس.

- يا نوح أنا نفسي ما بقتش سامعلي حس، عياط طاهر فقع طبلة وداني.

زاد عنف بكاء طاهر ابن الأربع سنوات، فأبعدتُ الهاتف عن أذني قبل أن يفقأ طبلتي أنا أيضًا، ووضعت الهاتف على وضع المكبر وقلتُ:

- طب شوفه عايز إيه واعمله عشان يهدا.

- عايز يرسملي نجمة على قورتي.. حياتي! خدي طاهر خمس دقايق عشان معايا تلفون.

سمعت صوت آسيا التي لا يناديها قطز إلا بـ«حياتي» يقترب من الهاتف، وهي تقول بنبرة تظنها همسًا:

- بتكلم مين متأخر كده؟

- نوح.

- سلملي عليه وما تنساش تعزمه على الغدا.

سمعته يرسل إليها قبلة في الهواء ثم عاود الحديث معي، ينقل إليَّ سلامها وهو يتحرك من مكانه حتى أتاني صرير باب شرفته الجرار يفتح ثم يغلق خلفه لينكتم صوت طاهر أخيرًا، فأجد نفسي أتنفس الصعداء في هدوء مع قطز.

- فاضي يوم الحد تتغدوا معانا إنت ودليلة؟

- يا عم ولو مش فاضي أفضى لك.

- يا سيدي على الأدب.

- هو في حاجة جابتنا لورا غير الأدب؟!

- مالك يا نوح؟ صوتك مش عاجبني.

- دوست على ديل قطتين سود، فالدنيا منحسة معايا.

- القط الأسود مش نحس، ده كلام الأوروبيين بتوع عصور الظلام. إنما المصري القديم كان بيتفاءل بالقط الأسود ومعتبره تميمة للحظ السعيد. تعرف إن الإلهة باستت...

سقطتُ في بحر معرفة قطز وسرده لتاريخ تقديس

القدماء المصريين للقطط عامة والسوداء خاصة، وكيف نحتوا لها تماثيل من البازلت الأسود، وحنطوا مئات الآلاف من جثثها في الجبانات الملكية، ووصل بهم الأمر إلى أنهم بنوا معبدًا ضخمًا في الزقازيق للإلهة القطة باستت.

طبعًا لم أكن مهتمًّا بأي مما يقوله، ولكني اشتقت إلى حديثه وشغفه بحضارتنا إلى درجة أنني تركت موجات بحر معلوماته التاريخية تلطمني من دون أن أقاومها، بل تصنعتُ الاهتمام بما يقوله وزيفتُ دهشتي بالتفاصيل حتى أتم حديثه قائلًا:

- سيبك من باستت وسخمت دلوقتي، خلينا فيك. الدنيا منحسة معاك إزاي؟

- عك في الشغل وعك في البيت وآخرة المتمة سي الدكتور فازلين ظهرلي. أتاريه صاحب الشقة اللي حصلت فيها الجريمة.

- يا دي القرف! وعملت إيه؟

- كَرَفتله وخليت صلاح يتعامل معاه، بس أمي عمالة تكلمني وأنا مش حمل أي ابتزاز عاطفي دلوقتي. فاضلي تكة وأجري في الشارع ملط زي المجانين.

- لا ورحمة أبوك إحنا مش حِمل قضية فعل فاضح في الطريق العام، إنت فين دلوقتي؟

- رايح عمارة سيف الدين.

- نص ساعة وأبقى عندك.



منذ شهر، تصدر قطز قائمة آل المحمدي للأبناء الأكثر عقوقًا بوالديهما.

وصل الأمر إلى أن أباه سيادة اللواء السابق أنور المحمدي وأعمامه وأخواله من اللواءات السابقين والحاليين هددوه بحرمانه من الميراث، ونزع اسم العائلة عنه إن لم يتراجع عن قرار زواجه بآسيا خضر، كاتبة الجريمة المصرية الأكثر مبيعًا.

كان قطز ينتوي التفاوض مع عائلته حتى يباركوا زواجه بها، ولكن مغالاتهم في تعسيفه هذه المرة جعلته يدرك أنه لم يعد بحاجة إلى الرضوخ إليهم.

تجاهل الأسئلة الاستنكارية التي تطرحها عليه عائلته ليلًا ونهارًا: كيف تتزوج أرملة تكبرك بعامين، بينما ابنة خالتك استشهاد عزباء؟ لماذا تجبر نفسك على أن تصير أبًا لابن لا يحمل اسمك؟ لماذا تربط اسمك وأنت ضابط في

المباحث الجنائية باسم امرأة ارتكبت خالتها جرائم قتل، حتى تورَّث ثروة ضخمة لها قبل أن تنتحر بسم السيانيد وتفر من العقاب؟

قابل صديقي المهذب تلك التعليقات الجارحة بأن أرسل لكل أفراد عائلته كارتًا أبيض مزينًا بزهور ذهبية يدعوهم فيه إلى حضور زفافه وآسيا على أحد شواطئ العين السخنة.

حين تسلم أبوه الدعوة أخبره أنه من الليلة سيعتبر أن الله حرمه وزوجته من نعمة الإنجاب.

تلقى كلمات سيادة اللواء المجحفة بابتسامة هادئة، ثم مال إلى جبينه وقبله، وكذلك فعل مع أمه وأخبرهما أنه في حالة غيرا رأيهما وقررا حضور عرس ابنهما الوحيد، فقواعد الملابس التي وضعها هو وآسيا أن يرتدي الجميع ملابس صيفية بسيطة بيضاء اللون، ثم جمع كل ما له في البيت وظل ماكثًا معي حتى موعد الزفاف.

بالطبع لم يحضرا، ولكن تقبل قطز نبذ عائلته له، واختار أن يسكن إلى حبيبته ويكتفي بها، ليصير زوجًا لها، وصهرًا لأمها القعيدة، وأبًا لابنها اليتيم.



سرتُ بمحاذاة أعمدة الإنارة الباريسية التي ترتعش

مصابيحها مصدرةً طنينًا مقلقًا انتهى بأن احترقت لمبة أحدها.

أخرجتُ الكثير من الصدقات لعمال النظافة وبائعي الورد والمناديل عسى أن يوفقني الله وينفك نحسي، حتى وصلت إلى شارع القصر العيني.

أصبح محيط العمارة هادئًا يخلو من البشر. فككل جريمة، بمجرد أن تنقل الجثث إلى المشرحة، ينصرف المتجمهرون إلى شؤونهم، كأن رؤية الموتى في حافظاتهم هي تتر نهاية فيلم التشويق الذي كانوا يتابعونه.

دلفت إلى شارع حسن مراد الذي استوحش ظلامه مع إخلاد أغلب الجيران إلى النوم وإطفاء أنوار بيوتهم الفسيحة.

لمحتُ مصطفى خبير تكنولوجيا المعلومات الجنائية يخرج من نور ومهند ماركت وهو يحمل اللابتوب أسفل إبطه، ويمضغ علكة تفوح منها رائحة النعناع بصوت مزعج، ويفتح زجاجة مياه جديدة.

ناديته فتبادلنا التحية ثم سألته ونحن نسير:

- إيه أخبار الكاميرات؟

- زفت. مفيش كاميرا لاقطة راجل لابس بدلة بيضة ولا بالمواصفات اللي فادي إدهالي.

- ولا حتى كاميرات العمارة؟

- كاميرات العمارة زفت! العدسة ما تنضفتش من أيام الجنيه الجبس فالرؤية زفت، كواليتي التسجيل زفت، ما بين كل لقطة والتانية يحصل جليتش فالصورة تتجمد وختم الزمن شغال، ومش جايبة غير زاوية المدخلين وكمان مش مبينة مخرج سلم الخدم، ولقطة تجمع الجيران في العمارة مشوشة ومش ظاهر فيها أي حد لابس بدلة بيضة ولا شكله ملفت للانتباه. ده غير إن إضاءة العمارة نفسها...

- أكيد زفت برضو ما إنت مفيش حاجة بتسلك معاك يا مصطفى!

- ده أنا برضو ولا إنت وصلاح اللي مفيش قضية بتتجمعوا فيها إلا وتالتكم النحس!

- والله عندك حق. طب في جديد عن الكاميرات السرية اللي في الكول سنتر؟

- الكاميرات سليمة والعدسات جودتها فاجرة، والتمثال كمان فيه مايك عالي الدقة بس يا مين يلايمني على الدرايف اللي بتسجل عليه! ما تشوفلنا يا نوح صاحب الكول السنتر ده فين عايزين نِخلص.

- المرور بيتواصل مع الكماين عشان نجيبه.

- وكيل النيابة التنح بيقول إن صاحب الكول سنتر والواد الفرَّاش هم اللي عملوها، وإنه تلاقيه مركب كاميرات سرية بيتصنت منها على الموظفين لأن شغله شمال. سمع معلومة اتسربت للشفت فخلص عليهم وكده كده الدرايف معاه يقدر يلعب في التسجيلات براحته. بس على مين، مهما لعب في التسجيلات أنا هعرف أقفشه.

- سيب وكيل النيابة يتكلم براحته، لما يبقى عنده دليل نبقى نعوم على عومه. خلينا في وكستنا، الشارع كله كاميرات ما استفدناش منها حاجة.

طرقع علكته طرقعة أقرب ما تكون إلى صوت فرقعة البمب، كأنه يختبر صبري على تحمل أصوات فمه المزعجة، ثم قال:

- في حاجة مهمة خدت بالي منها.

طرقع علكته مرة أخرى، فقلتُ:

- طب تف اللبانة عشان نعرف نتكلم.

بصقها على الأرض من دون أي مراعاة لنظافة الشارع أو الآداب العامة ثم قال:

- في عربية ركنت قدام السوبر ماركت ده قبل توقيت الجريمة بخمس دقايق.

- الكاميرا جايبة وش اللي سايقها؟

- لأ.

- الكواليتي بتاعتها هي كمان زفت؟

- راكنة صاحب العربية هي اللي زفت. بص معايا كده.

وضع اللابتوب على كبوت سيارة أسفل العمارة وشغل الفيديو المقصود.

أشار إلى سيارة جيب لونها داكن يصعب تحديده لأن التسجيل غير ملون، وزاوية الكاميرا لا تكشف أكثر من مقدمتها وصولًا إلى نهاية الكبوت.

هذا الفيديو وضح لي معلومتين، الأولى أن القاتل دخل وخرج من العمارة من شارع حسن مراد كما توقعت، والثانية أنه يقود سيارة جيب داكنة.

قلتُ لمصطفى:

- يعني تركيزنا دلوقتي على العربية الجيب، مش الموتوسيكل المركون بين العمارتين؟

- ده موتوسيكل الفراش فمش...

- عرفت منين إنه موتوسيكل الفراش؟

- صلاح قالي قبل ما يتحرك مع الإسعاف.

لعنة الله على سوء التواصل الذي سيدمرنا.

ترفعت عن التعليق عن سوء تقدير صلاح للموقف ثم قلتُ لمصطفى:

- أنا خليت صيدناوي يسجل لنا كل عربيات السكان و...

- ما أنا كلمته أول ما لقطت العربية، كان واقف مع الملازم الجديد أبو شورت ده.

- فادي.

- هو سي فادي ده، سألته عن العربية فشاور عليها للبواب. والبوّاب قالنا إنه أول مرة يشوفها في الشارع فـ...

- يعني إيه شاور عليها؟ العربية اللي في الفيديو دي كانت راكنة لما إحنا وصلنا؟

- ما ده الحوار بقى، العربية ما تحركتش غير من ساعتين.

- نعم! يعني القاتل كان كل ده في الشارع! إزاي ما تقوليش يا مصطفى!

- ما كنتش أعرف إنك قطعت أجازتك ونزلت معانا، فقلت لفادي وهو قالي إنه هيتصرف.

- هو ده عارف شماله من يمينه عشان يتصرف؟ إزاي عربية اشتبهنا فيها إنها عربية القاتل تتساب من غير مراقبة؟! إنت متأكد إن العربية ما تحركتش غير من ساعتين بس؟ مراجع توقيت الكاميرا كويس؟

سرَّع الفيديو ليؤكد لي المعلومة، وأشار بإصبعه إلى ختم زمن الفيديو، منذ ساعتين وثلاث دقائق وأربعين ثانية، أنيرت مصابيح مقدمة السيارة ثم عادت إلى الخلف واختفت من دون أن نلمح قائدها.

ابتلعني التوجس، مواصفات القاتل، معرفة فادي بالسيارة المشتبه فيها قبلي، قراره أن يتولى مهمة البحث عن مالكها من دون أن يخبرني، ثم تختفي السيارة مصادفةً في التوقيت نفسه الذي صرفته فيه عن موقع الجريمة!

أغلق مصطفى اللابتوب بقوة فصدرت عنه تكة انتشلتني من شكي الضاري الذي إن لم أملك دليلًا دامغًا يثبته سأكون أوديت بنفسي وبمستقبلي المهني إلى التهلكة.

قال وهو يعيد اللابتوب إلى أسفل إبطه:

- أنا هطلع أشوف حوار باب المخزن الإلكتروني المقفول ده. عايز حاجة؟

هززت رأسي نفيًا، فدخل مصطفى إلى العمارة وتركني

أشتعل غيظًا، وأضغط على ضروسي حتى كدتُ أطحنها بين فكّي، لم يرحم ضروسي سوى انتباهي لأن هاتفي يرن.

كان صلاح المتصل، بمجرد أن وضعت السماعة على أذني سمعت ضجة وصياحًا وصراخًا قادمين من عنده وهو يقول:

- والنبي يا نحنوحة ترفع الفيب بتاعت دودي من على الشاحن.

- نعم يا خويا؟

- كان بيشحنها في الحمَّام ونسي ياخدها معاه لما كَرَشته، فلو فضلت على الشاحن البطارية ممكن تفرقع. شيلها و...

- ياكش تتشال رقبته من على كتافه. الواد ده فيه حاجة غلط يا صلاح، اقفشه من قفاه واطلع بيه على القسم.

- آلو.. نحنوحة!

ارتفع صوت الصراخ والعويل والبكاء والأنين من عنده، فيبدو أنه لم يسمع آخر جملة قلتها.

سألته صائحًا حتى يسمعني:

- إيه الدوشة اللي عندك دي؟

- ما ده أصلًا اللي أنا متصل بيك عشانه بس إنت خدتني

في دوكة. البت ماتت والصراحة كده يا نحنوحة أنا الفار بيلعب في عبي.

- اشمعنى؟

- البت طلعت من العملية والدكتور فضل يقول سبحان الله دي معجزة وربنا كتب لها عمر جديد، مفيش خمس دقايق وكانت قطعت النفس.

- إنت فاهم إنت بتقول إيه يا صلاح؟ الناجية الوحيدة ممكن تبقى اتقتلت وهي في حمايتك وإنت...

- يا جدع طلعت دقيقة أفك حَصرة وخليت فادي يقف مكاني، يعني ما سبتهاش لوحدها.

- بسنت اتقتلت أول ما سبتها تحت مراقبة فادي؟

صمت للحظة ثم قال:

- صيغة السؤال دي خطر يا نحنوحة.

- مين اللي قدملك فادي على إنه ظابط جديد معانا؟

- ما اللوا رشوان قالنا من أسبوع إن في ملازم جديد هيجي القسم و...

- سيبك من اللي اتقال من أسبوع وخلينا في النهارده، شُفت الكارنيه بتاعه؟ شُفته بيحضَّر في الدفتر أول

ما وصل؟ اللوا رشوان عرفكم عليه بنفسه زي ما بيعمل مع كل ظابط مستجد، ولا فادي ده دخل قالك سلام عليكم أنا الظابط الجديد وإنت صدقته عمياني؟

- أنا ما قابلتوش في القسم يا نحنوحة، أنا اتعرفت عليه في موقع الجريمة.

فشلت تمارين السيطرة على انفعالاتي، فانطلقت أعترض على تسيب صلاح وسذاجته بكل الطرق البذيئة المتعارف عليها حتى صمتُّ وأنا ألهث غضبًا.

لم يعترض صلاح ولم يوقفني عند حدي، تركني أفرغ ما في جعبتي من إحباط وسخط، ثم قال:

- خلصت يا سيادة الرائد ولا في شتيمة تانية واقفة في زورك؟

- لا مؤاخذة يا صلاح يعني بس حط نفسك مكاني. إحنا كده هنروح في ستين داهية.

- مؤاخذتك معاك يا خويا. إيه العمل بقى دلوقتي؟

- راجع كاميرات المستشفى وشوف مين دخل وخرج من أوضة بسنت، واتحفظ على فادي عندك لحد ما...

- فادي مش عندي. قالي إنه جَايلك ياخد الفيب.

٨

وصل قطز إلى ناصية شارع حسن مراد حيث أنتظره يلوِّح إليَّ من نافذة سيارة آسيا اللاند كروزر التي ابتاعتها لنفسها بعدما ورثت ملايين والدها.

ظننت أنه تأخر في الوصول لأنه قادم من التجمع الخامس حيث بيت الزوجية الجديد، ولكن حين تأملت اقترابه من العمارة ببطء حلزون مسن يزحف على بطنه اللزج، فهمتُ أن المشكلة في قيادة صديقي وليست في مسافة الطريق.

بعد أن أمضى وقتًا كفيلًا لتحرير بلاد وشعوب يصف السيارة بمحاذاة الرصيف أسفل شرفة الكول سنتر، نزل أخيرًا وعانقني عناق المطارات المليء بالضغط على الضلوع، والضرب على الظهر، والكثير من عبارات الاشتياق والترحيب والتندر.

كان هذا لقاءنا الأول منذ أن أوصلته هو وآسيا إلى المطار

ليقضيا شهر العسل في جزيرة زنجبار، فشعرتُ أن شكله تغير.

قد يكون سبب انطباعي هذا أنني لم أعتد تمضية شهر كامل من دون رؤيته، أو لأنه اكتسب سمرة من التسكع على الشواطئ الأفريقية وترك شعره يطول قليلًا من أسفل القبعة الرياضية السوداء التي يعتمرها، وأطلق لحية خفيفة كما يفعل كلما أخذ إجازة طويلة من الداخلية فصار يشبه إنريكيه إجليسياس.

قبل أن يتخطى حديثنا السلام، فتح باب السيارة وأخرج منها حقائب بلاستيكية أخذ يوضح لي مكونات كل حقيبة:

- ده بن زنجباري يفوَّق الميت. ودي شوكولاتة لتالا ويحيى وياسر. دي مغناطيسات للتلاجة هتعجب تيتة. توابل لنادية يمكن طبيخها يتعدل. وشوية مشغولات تتعلق على الحيطان، أو تتفرش على الترابيزة عشان إنت ودليلة تزينوا بيها البيت يا عريس.

- يا عم كلفت نفسك.

- بس يالا! حطهم في عربيتك عشان ما انساهمش.

- خليهم معاك لحد ما نروَّح. عربيتي جابت جوان سلندر.

- ما تقولهاش في وشي طيب عشان عربيتي بتتعدي منك وأنا لسه ما تعافتش من مصاريف الجواز.

أعاد الهدايا إلى السيارة، ثم أخرج غطاءً بدأ يفرشه بعد أن تأكد ثلاث مرات من أنه أغلق النوافذ والأبواب.

جاريت وسوسته وجذبت طرف الغطاء معه حتى ننجز تلك المهمة العجيبة وأنا أسأله:

- إحنا بنغطي العربية ليه، يا قطز؟

- عشان بغير عليها.

أنهينا تغطية اللاند كروزر وأنا أتندر على تعليق قطز الفكاهي، ثم هممتُ أن أسند ظهري إلى بابها ولكنه جذبني من كتفي بمزيج من الجدية والرفق كأن ظهري سيلوث سيارة المدام.

- ما جيتش بعربيتك ليه بدل الروشة دي!

- في الصيانة، وآسيا معتبرة العربية دي بنتها، فلو حصل لها حاجة وهي في عهدتي الشهامة بتقول إن أنا اللي أصلحها. وأديك شايف، تمن كاوتشها بعربيتي كلها.

- يا سيدي ربنا يزيدكم. بس إيه الكاب الشيك ده؟

نزعت القبعة الرياضية عن رأسه لأجربها، ولكني تفاجأتُ بأنه يخفي بها مقدمة جبينه المرسوم عليه بقلم أسود خطوط طفولية عشوائية تحت مبتدأ شعره الغزير.

قال وهو يعيد اعتمار القبعة:

- إيه رأيك في أحدث أعمال الفنان طاهر الأصلية؟ كان بيرسم على قورتي نجمة عشان مبسوط مني.

ضحكنا وتبادلنا السجائر وهو يروي كيف استغل طاهر أنه يغط في النوم على أريكة غرفة المعيشة وآسيا منشغلة بتحضير العشاء، فرسم على جبينه بحبر دائم يصعب مسحه.

سألته وأنا أنفث دخاني:

- أخبار الأبوة إيه؟

- خطر. طاهر بيقع وقعات عجيبة وبيجري طول الوقت، أوبشن المشي بالراحة ده ملغي من إعداداته، كل شوية يتخبط في حاجة.

- طب ما تكشفوا عليه ليكون عنده مشكلة في الاتزان.

- مش مشكلة اتزان، مشكلة حماس زيادة. يا حبيبي من ساعة ما عمل العملية وقلبه بقى كويس تحس إنه عايز يعوض كل الشقاوة اللي اتحرم منها. فدلوقتي ما بقاش عايز أب عادي، ده عايز عصام الحضري عشان يلقفه قبل ما يقع. تصدق بالله؟ الواد ده حسِّن ردود أفعالي.

سألته وأنا أحاول أن أخفي نبرة التمني في صوتي بأن أضيف ضحكة متهكمة للكلام:

- العيال توتر ووجع دماغ مش كده؟

- وجع دماغ من النوع اللي يستاهل. شوف، مفيش مرة خرجت أنا وآسيا إلا وقمنا متنكدين عشان طاهر اتصاب إصابة جديدة، وطلباته كلها بالعياط زي ما سمعت كده، معندوش مشكلة يفتح سارينة العياط دي ساعتين تلاتة لحد ما دماغي تورم، بس كله يهون قدام لحظة بيرمي فيها راسه على حجري وينام، ولا يضحك لما أزغزغه، أو يمسك إيدي عشان نعدي الشارع، الواد كفه كلها قد صباعي يا نوح. الأبوة دي طلعت عاملة كده زي...

صمت لحظة يتدبر الوصف المثالي، ثم قال بابتسامة لم أرها على وجهه من قبل:

- مش عاملة زي حاجة. الأبوة شعور ملوش زي. بكرة لما ربنا يرزقك إنت ودليلة هتفهم قصدي.

ربت على كتفي من دون أن يدري أنني لن أختبر أبدًا هذا الشعور الذي يتمناه لي.

صدمني الواقع، أدركتُ في هذه اللحظة أبعاد فاجعة أنني

لن أورِّث لقب جدي، ولن يمتد ظلي، ولن تتعمق جذوري في الأرض، والأبشع من ذلك، لن أجد كفًّا بحجم إصبعي تتشبث بي لنعبر الطريق معًا.

شعرتُ بركلة عنيفة تصيب أمعائي كأن الحقيقة قررت الآن أن تبرحني ضربًا. الحقيقة التي تظاهرتُ بأنها لا تؤلم، وأنها مجرد واقع يجب التعايش معه كأي واقع حزين آخر تعايشت معه منذ طفولتي من دون أن أعطيه حقه من الحزن والرثاء والبكاء والعويل قبل أن أتقبله وأمضي قدمًا.

شعرتُ بقلبي يثقل بين ضلوعي، وغزت فمي المرارة التي تسبق البكاء، ففقدت رباطة جأشي وفرت مني دمعة وحيدة مسحتها سريعًا بظهر يدي ولكن فات الأوان، قطز رآها.

لم يسألني إن كنت أبكي، يعلم أن هذا السؤال سيجعلني أشفق على نفسي، فكل ما فعله كان أن وضع يده على كتفي وأمسك عن الكلام وظل ينظر إليَّ منتظرًا مني توضيحًا.

قلت بصوت تفاجأت بأن فيه رعشة ضعيفة أمقتها:

- الدخان دخل في عيني ومش نايم كويس وجيوبي الأنفية تعباني.

راقبني وأنا أدهس سيجارتي بنعل حذائي، ثم سألني بقلق:

- تيتة ونادية كويسين؟ أنت ودليلة تمام؟

- كلنا تمام ما تخافش.

مَن أخادع!

- بصراحة يعني مش تمام أوي. دليلة عندها أورام ليفية خطيرة في الرحم.

رأيتُ تدرج المشاعر وهي تجتاحه من الصدمة إلى الذعر وصولًا إلى التعاطف.

علق على الخبر الحزين بجمل مبتورة كأنه يردد كل ما يخطر على ذهنه من دون ترتيب:

- ما تقلقش. هتعدي. المهم إنت تجمد عشان خاطرها. كلنا هنبقى معاها. هي استقبلت الموضوع إزاي؟ استنى! أبويا يعرف دكتور أورام شاطر. أنا هكلمه يوصلني به و...

قاطعته بنبرة هادئة حتى يؤمن بصدقها:

- إحنا لفينا على دكاترة البلد كلهم وعمليتها يوم الخميس ده. الموضوع تقريبًا خلص.

- خلص؟ إنتو بقالكم قد إيه عارفين؟

- سنة.

- سنة من غير ما تقول لي؟!

- دليلة ما كانِتش مستعدة تعرف حد. أنا نفسي اكتشفت الموضوع بالصدفة وما قلتش لتيتة ونادية غير من كام ساعة ومفهمهم إن الموضوع بسيط، شوية أورام وهتتشال وخلاص.

زم شفتيه ثم ربت على كتفي مجددًا وقال:

- طب دليلة عاملة إيه دلوقتي؟

- مخنوقة. متوترة. متلخبطة. أنا وهي مش مستوعبين إن بقالنا سنة بنتنقل من دكتور لدكتور عشان نسمع نفس الجملة، مفيش أمل في الخلفة.

- سيبك من كلامهم. ما أبويا وأمي خلفوني بعد سنين من المرمطة عند الدكاترة اللي برضو كانوا بيقولولهم الأمل ضعيف.

- في حالتنا إحنا الأمل مش ضعيف، الأمل معدوم.

- يا عم ليه التشاؤم ده؟ مش بتقول إنها هتشيل الأورام دي يوم الخميس؟

- مش هتشيل الأورام، يا قطز. دليلة هتشيل الرحم خالص.

رأيت تعبيرات الصدمة والأسف تغزو ملامحه.

أحسده على قدرته على العثور على تعبير يرسمه على وجهه.

فحين أخبرنا الطبيب بتلك المعلومة منذ شهر بعد أن جربنا شتى طرق العلاج وقمنا باستئصال الأورام، ولكنها عاودت الظهور، تبلدت تعبيراتي أنا ودليلة في عيادته.

بقينا صامتين أمام المصطلحات الطبية التي تخرج من فمه لاذعة ثم تتبخر في الهواء كالكحول.

لم نجد أسئلة نطرحها عليه، أو حتى جملًا نعترض بها على حجم مأساتنا. هززنا رأسينا وشكرناه على وقته ثم نزلنا من عيادته وركبنا سيارتي.

مضت لحظة بحثت فيها عما يصح قوله لأطمئن دليلتي، فلم أجد سوى جمل قصيرة خرجت مني كل كلمة فيها وهي تنتزع أحشائي:

- كل اللي ربنا يجيبه كويس. أنا بحبك وهفضل في ضهرك. ما تخافيش.

كان رد فعلها يتنافر مع تماسكي، صرخت بعنف وبكت بلوعة أم فقدت ابنًا لم يحظَ بفرصة ليسكن رحمها.

هكذا صرتُ اليد التي تربت على كتفها، الجذع الذي يستند إليه ظهرها، الأنامل التي تمسح عبراتها، الصوت الذي يطمئنها، والكف التي تنتشلها من السقوط في بئر الاكتئاب والاستسلام لأحلك أفكارها.

قال قطز:

- ربنا يقومها لنا بالسلامة، بس طمني عليك إنت، عامل إيه؟

حتى الآن، قطز هو الوحيد الذي اهتم بالسؤال عن حالي، لا عن تفاصيل حالة دليلة الطبية، ولا عن مستقبل زواجنا، ولا عن قراري فيما يخص الإنجاب. اكترث بالاطمئنان على الشيء الذي تجاهلت التفكير فيه لشهور طويلة، نفسيتي.

أجبته مستسلمًا للحزن الذي اجتاحني:

- أنا تمام طول ما أنا مشغول. وطبعًا مسلم أمري لله، بس ده ما يمنعش إني زعلان. أنا مقهور، مقهور أوي، يا قطز.

استرجاع تفاصيل ما عشته في الفترة الماضية كان ثغرة عسكرية عبر منها فيلق دموعي، فتدمرت حصوني، وانهزمت رغبتي المستميتة في التماسك، وبكيتُ على كتف خليلي وأنا أردد بصوت خفيض:

- أنا عمري ما هبقى أب!

انتقل من مجاورتي إلى الوقوف أمامي موليًا ظهره إلى الشارع ليغض بصر العالم عن لحظة وهني وانكساري.

أخذ يربت على ظهري وكتفي ومرفقي ورأسي وهو يتمتم بجمل المواساة وشعارات الأمل الزائف حتى استشعرتُ رعشة في صوته ونشيجًا يخالج أنفاسه، فإذا به يشاركني دموعي الحارقة.

هدأت من روعي، وأخذت نفسًا عميقًا وأنا أسأل قطز الذي ندت دموعه وجنتيه المحمرتين:

- بتعيط ليه إنت كمان؟

- عايزني يعني لما أشوفك بتعيط أروح ألعب بلياردو؟

انتابتنا نوبة ضحك غريبة حولت دموع الهَم إلى دموع فكاهة حتى آلمتنا بطنَانا، واضطررنا إلى أن نضغط عليهما حتى لا تنفذ منهما أحشاؤنا من فرط الضحك.

تمالكنا أنفسنا وكررنا «اللهم اجعله خير» ونحن نمسح دموع الضحك والحزن، ونحاول أن نعيد تنظيم أنفاسنا حتى انتهى الضحك سريعًا كما بدأ سريعًا وقال قطز بجدية:

- فاكر ميس لبنى؟

- بتاعت الإنجلش؟

- آه. ماما كانت كل سنة تجيب هدايا عيد الأم لكل

المدرسات، بس ميس لبنى لازم أكتب لها كارت معايدة وأبوس إيديها وأحضنها عشان ربنا ما رزقهاش بأطفال. فسألت ماما ليه ربنا بيخلق ستات ما عندهاش أطفال، قالت لي عشان ربنا بيخلق أيتام ما عندهمش أمهات.

لم يمهلني مطولًا حتى أتدبر تفسيره الرحيم لابتلاء الله ثم سألني:

- تاكل آيس كريم؟

* * *

جلسنا على طرف سور فيلا أثرية مهجورة نحارب الحر والحزن بالآيس كريم.

قصصت عليه ما صار منذ أن خرجت من بيتي وحتى اللحظة التي هاتفته فيها.

شاركته إحباطي وانزعاجي من رؤية زوج أمي، ثم مكالمات أمي التي بلغت عشر مكالمات حتى الآن، ثم شكوكي حول فادي، فسألني:

- أنا حاسس إنك مدي موضوع فادي ده أكبر من حجمه.

- مفيش أي حاجة تثبت إنه ظابط غير سذاجة صلاح.

- مش صلاح قالك إنه جاي هنا؟ نبقى نشوف كارنيهه، بس أنا مش مقتنع باحتمالية إنه القاتل.

- بقولك العربية الجيب اختفت بعد ما أنا طردته.

- أولًا إحنا مش متأكدين من أن العربية لها علاقة بالقاتل، ثانيًا إنت مش لسه مكلم صيدناوي وقالك إنه شاف بعينيه فادي سايق عربيته السكودا ومشي؟

- يعني دي صدفة وموت بسنت في نفس الوقت اللي فادي وقف حراسة عليها برضو صدفة؟

- عادي يا نوح، اللي اتكلف بقتلها غفله، ما إنت بتقول إنه غبي. هو الباشا كان بيخدم فين؟

- شرم الشيخ.

هز رأسه ومط شفتيه ثم سألني بجدية شديدة:

- عنده معارف في موفنبيك يعملوا لنا ديسكاونت؟

نظرتُ إليه ثم سجلتُ اعتراضي على تعليقه فسألني:

- إنت معترض على شرم الشيخ ولا على موفنبيك؟

- معترض عليك إنت شخصيًّا.

- ملكش في الطيب نصيب، ده أنا كنت هعملك حفلة توديع العزوبية هناك.

- يا عم إحنا في إيه ولا في إيه.

- طب نتكلم جد. أنا فاهم إن منظرنا نيلة قدام الطب الشرعي ووكيل النيابة بس عادي هتتلم. إنت حاطط فرضية إن القط خربش القاتل فدمه نزل على الديل، صح؟

- كنا هنعرف صح ولا لأ لو فادي ما رجعش عليه.

- حتى لو الديل اتلوث. لو القط خربش القاتل فعلًا هتلاقوا دمه وأنسجة جلده على مخالبه.

- طب والأدلة اللي طمسها في الحمَّام؟

- يا معلم مش الشاب خالد خد صورة واضحة للبصمة؟

- آه.

- هيقدروا يعملوا المطابقة ما دام جودة الصورة كويسة وإضاءتها والكونتراست بتوعها بروفيشونال، وأكيد الشاب خالد صوره مظبوطة يعني.

- تصدق ما فكرتش في حوار مطابقة الصورة ده!

- عشان إنت مش في الفورمة يا حبيبي. شقة فيها دستة رجالة كل واحد عايز يعلي على التاني أكيد هتنطحوا في بعض زي الجديان.

- إنت بتقول فيها. لو طلعت فوق هتشم ريحة التستوستيرون في الجو. وحسني عمَّال يتنطط على أهلي ويقولي أنا هعمل تقرير بغلطاتكم.

أنهى الآيس كريم ثم صاح وهو يمسح يده بمنديله:

- غلطاتنا! هو له عين ينطق بعد العك اللي عمله في أبو الفدا؟

نهض عن الرصيف وأخذ مني ورقة الآيس كريم الفارغة وقال:

- هرميهم في الزبالة ونطلع نشوف المدعكة دي.

- روَّح إنت. كفاية إنك جِتلي على ملا وشك في ساعة زي دي.

- إنت هتعملي فيها حساس! أنا معرف آسيا إني مطول. وبعدين صفحة البيت السعيد بتقول يجب أن تُبقي مساحة بينك وبين شريك حياتك من وقت لآخر لتحافظ على نار الشوق بينكما.

لم يعطني فرصة للسخرية من نصائحه العاطفية، وراح كمواطن محترم يلقي القمامة في سلة مهملات تكثر حولها قطط.

اقتربت منه القطط وأخذت تتمسح فيه، فربت على رؤوسها ودللها كأنه سنو وايت أميرة حيوانات الغابة الحنون.

* * *

دخلنا العمارة وقد فرغ فريق الطب الشرعي من فحص مدخليها.

دس قطز يديه في جيبيه وهو يتأمل المدخل، والسقف، والأرضية، والسلالم، والزخارف الفضية عند قبة كل باب ويقول وصدى صوته يتردد في سكون الليل:

- تعرف إن دي العمارة اللي أتصور فيها مشهد هروب عمر الشريف من البوليس السري في فيلم «في بيتنا رجل»؟

لم أكن أعرف، وما كنتُ لأعرف أبدًا لو لم يكن صديقي.

كدنا نتجه نحو السلم ولكن قطز وقف في الممر ينظر إلى المدخل المطل على شارع القصر العيني.

أسرع خطواته نحو المخرج ووقف داخل حدود الطوق الأمني ينظر إلى أعلى مبهورًا كمن التقى مع حب حياته مصادفة.

نظرتُ إلى حيث ينظر، كان يتأمل لافتة ضخمة سوداء من

الحديد المشغول والخشب المخروط تقول بخط عربي فصيح «نادي القصة».

لا أعرف كيف تمكن من ملاحظة تلك اللافتة المطموسة بصدأ الأيام، وقبح لافتات العصر الحالي وإهمال البشر، ولكن هذه عادة قطز، يرصد الجمال ولو كان مدفونًا تحت الثرى.

قال بحماس عارم:

- تعرف إن ده المقر الأصلي لنادي القصة. ده المكان اللي اجتمع فيه يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وطه حسين وتوفيق الحكيم. إنت متخيل إننا واقفين في المكان اللي اتناشر كاتب من أعظم كتاب بلدك كانوا بيتقابلوا فيه!

حسدته على مقدرته على الانفصال عن الواقع، وتحويل موقع جريمة دموية إلى معلم أدبي يثير حماسته إلى هذه الدرجة.

لم أغتل سعادته، تركته يأخذ وقته في تأمل اللافتة وسرد أصلها وفصلها حتى أعطاني هاتفه وقال:

- صورني. آسيا هتموت من الغيظ لو عرفت إني جيت هنا لوحدي.

وقف أسفل اللافتة بابتسامة واسعة واضعًا يدًا في جيبه، وأشار بالأخرى بعلامة النصر.

التقطتُ له صورة تفقدها بحماس طفولي ثم أكملنا طريقنا إلى الداخل، نصعد السلم وهو يحكي لي عن تاريخ عمارة سيف الدين، كيف سكنتها ليلى مراد لفترة طويلة، ومتى وكيف ولماذا تأسس نادي القصة المصري، ولماذا توقف نشاطه الثقافي حتى كنا على بُعد خطوات من الوصول إلى الطابق الثاني.

وقفتُ ألتقط أنفاسي أمام شقة الكول سنتر بينما يسألني:

- صحيح، في تفصيلة واكلة دماغي في القضية دي.

- اشجيني.

- في علاقة بين إن موتوسيكل الأوفيس بوي مركون تحت العمارة وبين إن القاتل هرب بعربية جيب؟ تفتكر الأوفيس بوي جه المكتب ودخل الشقة كأنه هيقضي شفت عادي وده يفسر عدم مقاومة الموظفين له لأنهم متعودين على وجوده، وبرضو يفسر دخوله وخروجه بسهولة لأن معاه كارت الموظفين، وبعد ما قتلهم وإنتو جيتوا، استخبى في حتة وعرف يزوغ بالعربية؟

التفتُّ إلى قطز موليًا ظهري إلى الكول سنتر وعزمت على

هدم نظريته لدافع واحد فقط، وهو ألا يكون رياض السعيد السخيف على حق وحدسه البوليسي أدق من حدسي.

قبل أن أنطق بكلمة، رأيت ملامحه تضطرب وسمعتُ جلبة وضجيجًا من خلفي يليهما لهاث ووقع أقدام يقترب مني وأخيرًا صيحة من صوت رياض المميز وهو يقول:

- امسكوه!

استدرت فرأيت شابًّا يركض خارج الشقة، بل الوصف الأدق أنه يهرب منها.

كان سريعًا إلى درجة أنني لم ألمح سوى خياله من زاوية عيني، وهو يدفعني إلى الحائط ليتخطاني وينزل من السلم.

بمهارة تجابه مهارة عصام الحضري في زمانه، تصدى قطز للهارب قبل أن يتخطاه هو الآخر وتلقفه من قفاه، ثم دفعه نحو الحائط مثبتًا إياه بذراعه.

لم يكن يبالغ حين قال إن الأبوة زادته يقظة وحفزت ردود أفعاله.

٩

الأسوأ من وقوع الكارثة، ترقبها.

الترقب هو أبو القلق، وهو الزر الذي إذا ضغطت عليه تحولت من إنسان طبيعي إلى فريسة محاصرة في الزاوية لا تملك سوى خيارين لا ثالث لهما، القتال أو الفرار.

هذه هي الحالة التي أود أن أضع فيها إبراهيم عبد السلام إبراهيم الشهير بـ«هيما»، فرَّاش الكول سنتر الأسمر المتعرق حليق الرأس.

بمجرد أن منعه قطز من الهرب على السلم، فتشته فوجدتُ في جيبه خمسة أشياء: عشرون جنيهًا ممزقة، بطاقته الشخصية منتهية الصلاحية، رخصة قيادة دراجة نارية رقمها يطابق رقم لوحات الدراجة المركونة في الزقاق، مفتاح الدراجة النارية، وأخيرًا والأهم سيجارة حشيش تنتصب وحيدة في علبة سجائر «LM».

قدناه إلى غرفة المدير لأنها الغرفة الوحيدة التي انتهى الطب الشرعي من فحصها، وأكد غياب أي أدلة جنائية فيها.

طلبتُ من حسني أخذ مسحة من كفَّي هيما بحثًا عن مخلفات إطلاق الرصاص، ثم رحتُ أنا وقطز وإيهاب ورياض نتفقد المخزن، وتركنا هيما وحيدًا يترقب تحقيقنا معه.

أخبرني رياض أنه شعر بالجوع فنزل إلى مطعم بيتزا أسفل العمارة من ناحية شارع القصر العيني يدعي «نابوليتانا»، طلب لنفسه بيتزا وجد عجينتها سميكة سُمك الرصيف، وجبنتها بلاستيكية الطعم، ومذاق زيتونها أقرب ما يكون إلى مذاق الكاوتشوك، ولا بد أن الزيت المستخدم لصنعها هو زيت سيارات وليس زيت زيتون.

منذ أن تعرفت على رياض وعضلات وجهه تقريبًا لا تبدي أي تعبيرات، ولكن قضمة واحدة من بيتزا رديئة جعلته ينفعل ويلعن أسلاف المطعم والشيف في غضب جم.

شاركه قطز الاهتمام بالبيتزا ورشح له أن يجرب مطعمنا المفضل «Maison Thomas» فوقفتُ أسمع منهما محاضرة طويلة عن السُّمك المثالي للبيتزا الإيطالية الحقيقية، ومحاضرة أخرى من رياض عن ضياع حقوق الملكية

الفكرية بمصر وضرورة القبض على صاحب مطعم «نابوليتانا» ليس فقط لأنه قدم إليه بيتزا من الجحيم، بل لأنه سرق الاسم وتصميم اللوجو من مطعم آخر شهير يحمل الاسم نفسه في الزمالك.

بوصولنا إلى المخزن، قررا أخيرًا التوقف عن الثرثرة عن أصول البيتزا اللعينة، وعاد رياض يقص علينا حكاية هيما.

قال إن مصطفى كان يفتح باب غرفة التخزين المغلق إلكترونيًّا والشاب خالد يصور تلك العملية بكاميرا الفيديو، وبمجرد أن نجح في فك شيفرة الباب اندفع هيما نحوهم كالطلقة ودفعهم بشراسة وركض نحو باب الشقة المفتوح في لحظة صعودنا السلم.

نظرنا إلى غرفة التخزين، كانت مظلمة وضيقة بطريقة مقبضة ومن دون مصدر للتهوية، ففاحت منها رائحة عرق هيما، مما يشير إلى بقائه فيها لوقت طويل.

تتراص بداخلها أرفف من الأرضية وحتى قبيل السقف بقليل محملة بمختلف المستلزمات المكتبية ومؤن المطبخ من سكر ولبن ومشروبات مختلفة.

رأيتُ على اليسار كراتين كبسولات إسبرسو تجاورها حقيبة ظهر مهترئة، فتحتها فوجدت بها تحاليل وفحوصات

وشهادة ميلاد طفل عمره أيام يحمل اسم إبراهيم في خانة الأب، وأخيرًا، كمية كبيرة من كبسولات الإسبرسو تملأ الحقيبة عن آخرها فوقف رياض أمامها ثم بدأ يعد كراتين الإسبرسو.

فرغ من العد ثم خرج من الغرفة من دون تعليق، وحين سألته عن سبب اهتمامه بكبسولات الإسبرسو كان رده سخيفًا وعديم القبول مثله:

- ما عنديش وقت عشان أشرح لك.

لا تملك الوقت لتشرح لي شيئًا يخص قضيتنا، ولكن لديك ما يكفي من الوقت ويفيض لتحدثني عن سُمك البيتزا أيها التافه الجلف!

* * *

وقفت في موقع استراتيجي عند الطرقة مكنني من رؤية غرفة المدير حيث ينتظرنا هيما، وكذلك باب الشقة المفتوح وغرفة الاجتماعات الكبيرة التي يقف رياض في شرفتها يتحدث في الهاتف.

في أثناء ذلك، وزع قطز سلاماته وتحياته على رجال الطب الشرعي، ثم وقف يتسامر مع حسني الذي لطالما فضل التعامل مع قطز عن أي ضابط آخر لأنه يفهم مصطلحاته

العلمية المعقدة إلى درجة أنه أثنى عليه مرة وناداه باللقب المبجل الذي لا يقبل أي طبيب أن ينادى به من لم يحصل على شهادة في الطب، قال له «يا دكتور!».

عاد رياض من الشرفة بعد أن أنهى مكالمته ثم جاورني وسألني:

- لسه شايف إن الفرَّاش ضحية مش جاني؟

- هنعرف بعد ما نستجوبه.

- لو مش الجاني، ليه استخبى كل ده في المخزن وجري زي الصرصار أول ما فتحنا الباب؟

- ده الدليل اللي هتقدمه للقاضي؟

بقيت تعبيراته كما هي، لم تزعجه نبرتي الساخرة من سذاجة تفسيره للجريمة، بل نظر إلى يساره حيث الصالة الواسعة، يراقب شباب الطب الشرعي يراجعون تسلسل الأحراز على أظرف الأدلة.

تفقد الساعة في هاتفه ثم علق:

- طَوِّلوا ولا أنا متهيألي؟

- إيه حكاية الإسبرسو؟ لو عندك معلومة تخص التحقيق المفروض تشاركها معايا.

- لو على المفروض، ففي حاجات كتير كان المفروض تعملوها النهارده، ولا إيه؟

كنت على وشك أن أجادله ولكنه لم يعطني فرصة للحديث، ألحق سؤاله بأمر:

- استعجلنا الطب الشرعي عشان نخلص.

- استعجلهم بنفسك ولا بتتكسف؟

لم يرد على تعليقي اللاذع، اكتفى بضم ذراعيه إلى صدره بشكل دفاعي وهو يحدق بي بنظرات ثابتة تصيب المرء بشيء من الاضطراب، كأن رياض مشعوذ سيلقي عليك لعنة ما إذا بقيت تنظر في عينيه الجاحظتين.

لم أخضع لسطوة تحديقه المريب بي، لستُ متهمًا حتى أهرب من عينَي وكيل النيابة، بادلته التحديق حتى رمش هو وولى وجهه حيث يقف قطز وسط رجالنا، ثم سألني:

- زميلك هيحضر معانا التحقيق؟

- طبعًا.

- فقرة تحيته للجمهور دي مطولة؟

- معلش، أصله بعيد عنك ذوق فحبايبه كتير. قل أعوذ برب الفلق!

ابتعدت عن رياض الصلف ثقيل الظل وأنا أتفقد الوقت في ساعتي، لقد مر نصف ساعة على احتجازنا لهيما، وهي مهلة كفيلة لإرباكه قبل استجوابه.

وقفت خلف قطز الذي فرغ لتوه من الحديث مع حسني، فرمقني الأخير بغيظ فور أن رآني أقترب منهما ورحل ليفعل شيئًا ما مع إيهاب ورياض.

كدت أسأل قطز إن كان يود الانضمام للتحقيق، ولكن رن هاتفي وتوسطت كلمة «ماما» الشاشة مجددًا.

تأففتُ فألقى قطز نظرة فضولية على هاتفي وسألني:

- أرد عليها يمكن يكون في حاجة غير اللي في بالك؟

- لو في حاجة مهمة هتتصل بنادية. عمومًا، هخلص شغل وأكلمها.

أعدتُ هاتفي إلى جيبي وكدنا نتقدم نحو رياض لنستأنف عملنا، ولكن استوقفني وقع خطوات تتخطى باب الشقة وتدنو منا، فالتفت إلى صاحب الخطوات.

همستُ بغيظ لقطز وأنا أشير بذقني تجاه من دخل إلى الشقة للتو:

- القفا وصل!

نظر قطز إلى حيث أشير، فرأى فادي في الصالة يتلفت حوله متفحصًا المكان قبل أن تقع عيناه علينا.

سألني قطز:

- شبه إدوارد كولين ولا أنا متهيألي؟

- مين يا أخويا؟

- الواد الساقع اللي خلص مخزون العالم من بودرة التسلخات على وشه في فيلم توايلايت.

- يا عم، ده شبه تامر هجرس.

- تصدق فيهم هافان من بعض.

نظر قطز إليه مباشرة حتى التقت عيونهما فأشار إليه مناديًا:

- خد تعالى!

اقترب فادي منا بنظرة عدائية كأنه على وشك أن يخوض معركة عنيفة ضدنا.

استقبل قطز هذه الطاقة العدائية الصبيانية بأن أحاط كتفي فادي بذراعه ضاغطًا على قفاه بابتسامة تشبه تلك التي يبتسمها في وجهك عمك الخبيث حين يقرر اختبارك في جدول الضرب بسؤال لولبي لا يعرف إجابته سوى عباقرة «UCMAS»، فيلي فشلك في الإجابة

عنه أن يصفعك أبوك صفعة على قفاك تلصق وجهك بصدرك.

قال له:

- إزيك يا فادي بيه، أنا الرائد قطز المحمدي.

- بتاع النسكويك؟

لعنا صلاح في سرنا، ثم قال قطز بهدوء ورصانة:

- ما علينا. قولي يا فادي، إيه اللي يفرق الإنسان عن البهيمة؟

صمت قطز منتظرًا أن يجيبه فادي عن السؤال الذي اتضح أنه لم يكن بلاغيًّا، بل استفهاميًّا يستلزم إجابة.

بعد لحظات قصيرة ممتعة من مراقبة تغير تعبيرات فادي من الاستغراب إلى التفكير إلى الغباء إلى الاستسلام، أجابه بنبرة تفتقر إلى الثقة في الذات:

- العقل؟

- ده على أساس إن الحيوانات حاطة شراب صوف في دماغها؟ اللي يفرقنا يا فادي إن الحيوان بيتعلم من تجربته الفردية. بيجرب ويغلط ويتعلم من غلطه عشان ينجو في البرية، لكن الإنسان بيتعلم بنقل الخبرة من

اللي قبله. بابا بياخدك من إيدك يعلمك تعدي الشارع، ماما بتعلمك تتشطف لوحدك، وتغسل رجليك قبل ما تنام. أنا بقى بعد القرف اللي سمعت إنك عملته ده قررت أطلع عليك كل الخبرة اللي خدتها من أبويا. شُفت سلاحف النينجا؟

- طبعًا.

- أنا عايزك تعتبرني المعلم رشدان.

- Aucun problème.

- أول درس هعلمهولك، إنك ما تنطقش حرف فرنساوي هنا. قشطة؟

- قشطة.

- تاني درس، البرفان القمور ده ترشه وإنت رايح تشقط من كايرو چاز كلوب مش وإنت رايح تحقق في جريمة قتل. ريحتك يا حبيبي ما ينفعش تبقى أقوى من ريحة الجثة. قشطة؟

- بس أنا...

- تالت درس، مش عايز لماضة. هندخل دلوقتي نستجوب الأوفيس بوي، تقعد تتفرج على الكبار بيشتغلوا إزاي

وإنت مربع إيديك. النفس ما يطلعش منك غير لما إحنا نسمح لك. قشطة؟

* * *

جلس رياض على رأس مكتب المدير، أجلس بجانبه أنا وقطز، ويلينا فادي المصاب بفرط الحركة.

تارة يعدل ظهر مقعده، وتارة يعدل ارتفاعه وتارة يعدل موضع مرفقيه، وفي أثناء هذا كله كعبه لا يتوقف عن ضرب الأرض بوتيرة ثابتة إيقاعها مثير للأعصاب.

يقابل أربعتنا على الطرف الآخر من المكتب، هيما بملامح تحمل شيئًا من براءة الطفولة، وتعبيرات تشي بالندم والخوف الذي جعله يتصبب عرقًا اختلط بدموعه المنهمرة.

منذ أن دخلنا الغرفة وهو يبكي بكاءً مفتعلًا، ويردد جملة «يا باشا وحياة ابني أنا ما عملتش حاجة» على الرغم من أننا لم نتهمه بأي شيء بعد، ولكني أومن بأن المذنب يحول كل سؤال يطرح عليه إلى اتهام.

قلتُ لرياض الذي طال صمته وبدأ يشعرني بالضجر:

- اتفضل يا رياض بيه.

هز رأسه وهو يرمق هيما بتلك النظرات الخارقة المطولة

التي يجيدها، ثم تنحنح على مهل واعتدل في جلسته كمن على وشك أن يطرح سؤالًا جوهريًا لن يغير مجرى القضية فحسب، بل سيغير الأسلوب المتبع في تحقيقات النيابة كلها:

- إيه أخبار يومك يا هيما؟

تبادلتُ وقطز نظرات التعجب والاستغراب بل والاستنكار.

هيما نفسه استعجب هذا السؤال المائع إلى درجة أنه توقف عن افتعال البكاء والاستجداء، ونظر إلى رياض وهو يحك رأسه الأصلع الذي يلمع أسفل مصباح المكتب الفلورسنت الكئيب، وقال:

- يومي كرب يا باشا والله. ما نتحرمش من سؤالك.

- احكيلي يومك الكرب بالتفصيل.

بحق أسامة منير، ما هذه النبرة الدافئة الحنونة التي يستجوبه بها؟!

أجابه هيما وما زال الارتباك يسيطر على نبرته:

- أنا ورديتي من سبعة ونص الصبح لسبعة ونص بليل و...

- من سبعة ونص الصبح لسبعة ونص بليل؟!

- آه يا باشا، وعارف على المرمطة دي كلها بقبض كام؟ ألفين وخمسميت جنيه.

طقطق رياض بلسانه على سبيل الاستنكار، ثم قال:

- دخلك ألفين وخمسميت جنيه بس يا هيما؟!

- للأمانة يا باشا أنا بحسِّن دخلي. بخلص الاتناشر ساعة من هنا وأطلع على كافيه أشتغل جارسون من تسعة لاتنين الفجر. يعني بشتغل سبعاتشر ساعة عشان في النهاية أقبض تلات آلاف وسبعميت جنيه.

- بتشتغل سبعتاشر ساعة كل يوم!

يا لمضيعة الوقت!

لو سامر المنيري هنا لجعل هيما يعترف بعد سؤالين اثنين، ولكن يبدو أن رياض هذا يرى في ترديد كل ما يقوله المشتبه فيه بنبرة استنكارية استجوابًا!

هز هيما رأسه يمينًا ويسارًا وقال بنبرة بدت لي شديدة الانهزامية:

- أقولك إيه بس يا باشا. أنا كنت فاكر إني هشقى كام سنة وبعدها الدنيا هتبقى وردية، لقيت العمر بيجري وحياتي بقت وردية بالليل ووردية بالنهار وعيشة تخلي الواحد يتمنى الموت النهارده قبل بكرة.

هز رياض رأسه بتعاطف وجدته مصطنعًا ثم نظر نحوي.

كنت أضع ساقًا فوق الأخرى لأريح دفتري الأسود الصغير على فخذي وأدون أي معلومة مفيدة قد ينطق بها هيما.

سحب رياض القلم والدفتر من يدي من دون استئذان ثم قال لهيما:

- كمل، يا هيما. باقي يومك مشي إزاي؟

لم تلتقِ أعيننا فلم يرَ نظراتي الساخطة المعترضة على قلة ذوقه، وأخذ يدوِّن شيئًا في دفتري بينما أسهب هيما في الحديث:

- نضفت المكان، وروقت المخزن، وجبت فطار لشفت الصبح وعملتلهم مشاريبهم، ونضفت وراهم. وصلتني طلبية كبسولات الإسبرسو على المغرب، فنزلت أشيل الكراتين و...

- نزلت تشيل الكراتين لوحدك؟

- أبو وردة البوَّاب كتر خيره شال معايا.

رفع رياض عينيه عن الدفتر وهو يوكزني بمرفقه وكزة خفيفة حتى أنظر إلى كلمة وضع إصبعه فوقها وهو يسأل هيما:

- إنت وأبو وردة شِلتوا كام كرتونة؟

- خمسة وعشرين يا باشا.

رفع رياض إصبعه فكشف عن رقم ثلاثين كتبه بخطه ووضع حوله دائرة تجاوره جملة عدد كراتين الإسبرسو، تليها كلمة أبو وردة، ففهمت أنه عرف هذا الرقم من استجوابه للبوَّاب، بينما كنت أفحص موقع الجريمة مع العميد نادي.

كتب رياض بخط رشيق بجوار الرقم الذي غالط ما يقوله هيما:

- **هيما كداب.**

أعاد رياض الدفتر إليَّ، فأريته لقطز مشيرًا إلى ما كتبه من دون أن أنطق بكلمة.

هل استلطف وكيل النيابة هذا؟

كلَّا.

هل أعجبت باستراتيجيته السلسة في استجواب هيما المبالغ في انفعالاته؟

بكل تأكيد!

إذا كانت استراتيجيتي في الاستجواب هي إنهاك أعصاب المشتبه فيهم من فرط الترقب والتوتر، فيبدو أن استراتيجية

رياض هي إنهاكهم من فرط ثرثرتهم. يلعب دور المنصت الساذج الذي يردد كل معلومة يتلقاها، ويضيف إليها نبرة متعاطفة تغري المتكلم بالإسهاب في الحديث والتبرير والتوضيح والتأكيد حتى يقع في شر أعماله ويتبين كذبه.

رياض لا يردد ويقلد من أمامه لأنه بليد وعقله خالٍ كما توهمت، بل لأنها طريقة مضمونة للحصول على أكبر قدر من المعلومات ممن يحاوره وبأقل مجهود، فهو عرف كل تلك التفاصيل من هيما بعد أن سأله سؤالًا واحدًا لا أكثر «كيف كان يومك؟».

استمرت مسرحية رياض. لم يواجه هيما بكذبه، أعتقد أنه كان يخطط لأن يتركه يخرج كل ما في جعبته، وعلى الأغلب هذا ما كان سيحدث لو فادي لم يكن معنا في الغرفة.

لقد أراه قطز الدفتر ليقرأ ما كتبه لنا رياض وإذا بالمادة الخام للغباء يصيح في هيما بأداء مفتعل:

- الكدب مش هيفيدك يا هيما. إنت استلمت تلاتين كرتونة مش خمسة وعشرين!

يا فرحة أمك بك!

رمقه قطز بغضب من دون أن ينطق بكلمة، تقريبًا كان

يحاول إخراسه بالتنويم المغناطيسي، بينما كنتُ أحسب المنافع والأضرار من أن أنهض وألكُم فادي لكمة تفقده الوعي.

كان الإحباط واضحًا على وجوهنا، لقد فشل تكتيك رياض، ليس لأن المشتبه فيه ذكي بما يكفي ليدمر دفاعاته، بل لأن فادي غبي بما يكفي ليضرب المدفع نحو حصننا بدلًا من حصن العدو.

حاول رياض تدارك الأمر، فقال لفادي وهو يغمز إليه ليفهم مقصده بوضوح ويجاريه:

- أعتقد إن هيما أتلخبط في عد الكراتين.

- بس مكتوب في الدفتر إن أبو وردة قالك إنهم تلاتين كرتونة.

قال هيما وقد لمعت عيناه بالدموع مرة أخرى:

- أنا فعلًا اتلخبطت، يا باشا. هما تلاتين مش خمسة وعشرين.

قال فادي من دون أن يأذن له أي منا لاستجواب الشاهد:

- يعني أنا لو دخلت المخزن وعديت الكراتين دلوقتي هلاقيهم تلاتين ولا خمسة وعشرين؟

- اللي تشوفه يا باشا.

- اللي أنا شايفه إنك زي عطوة.

انجعص فادي في مقعده يضع ساقًا فوق الأخرى، كأنه مكتشف الغامض والمثير بينما لم يفهم أي منا ما يقصده.

- طبعًا هتقولي عطوة مين؟ هقولك إن عطوة ده يا حبيبي كان أشهر حرامي كبسولات إسبرسو في خليج نعمة، كان بيسرقهم من الكافيتريا اللي بيشتغل فيها وبيبيعها أونلاين ويضرب سعرها صافي في جيبه. اعترف يا هيما، إنت عطوة!

كأن فادي فتح صنبور دموع هيما، فبكى الأخير وقال متشحتفًا:

- أيوه يا باشا أنا فعلًا عطوة! أنا كنت ناوي أسرق خمس كراتين من بتوع الإسبرسو. بس وحياة ابني دي أول مرة تجيلي الفكرة بنت الحرام دي. أنا عمري ما مديت إيدي على حاجة مش بتاعتي. ده مستر أحمد كان يبعتني البنك بألوفات وعمرهم ما نقصوا قرش، والكول سنتر كله متراقب بالكاميرات ومستر أحمد شايف كل حاجة وعارف إني عايش بالحلال.

تدخلت في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فسألت هيما:

- وهو مستر أحمد بتاعك ده فين؟

- في الساحل يا باشا.

- هو متعود يسافر كتير؟

- يا باشا ده راجل مدير، مش بييجي المكتب من أساسه، وبيتابع كل حاجة بالكاميرات.

- الكاميرات المعلنة ولا السرية اللي داسسها في عيون التماثيل.

- الاتنين يا باشا، وإحنا كلنا عارفين بموضوع الكاميرات السرية دي بس هو مش عارف إننا عارفين. الصراحة مستر أحمد راجل كريم وجدع بس جو المؤامرات لاحس دماغه ومخليه موسوس مننا وحاسس إننا بنتكلم عليه وبنبيع أسرار الشغل للمنافسين.

سأله فادي الذي لم تعلمه أمه متى يتكلم ومتى يطبق فمه:

- وما دام هو راجل محترم وجدع زي ما بتقول، جالك قلب تسرقه إزاي؟

- الله ما يحطك في وضع زي اللي أنا فيه يا باشا. المدام لسه والدة وصحتها متدهورة ومحجوزة في المستشفى، والواد جِه الدنيا قبل ميعاده ومرمي في الحضانة متعلق

له مليون محلول، عايزيني أعمل إيه وأنا مش معايا حتى تمن البامبرز!

امتعض رياض من تدخلات فادي فرمقه بحدة عسى أن يفهم أن الشيء الوحيد الذي اجتمعنا عليه في هذه القضية هو ضرورة أن يخرس.

طرح رياض على هيما السؤال الذي سيثبت أو يدحض نظرية أنه القاتل:

- كنت فين وقت الجريمة يا هيما؟

- مستر أشرف قالنا إنه رايح يبلغ القسم فاستغليت إنه هيخرج ودخلت المخزن أفضي الكبسولات في شنطتي وقفلت عليا بالكارت عشان محدش يشوفني. أبو وردة اتصل بيا قالي في حد من الطب الشرعي طالعلنا، فقفلت معاه وسمعت باب السنتر بيرن وآنسة بسنت بتفتح من عندها على المكتب. فتحت باب المخزن لقيت ريحة كولونيا قوية هافة عليا من الصالة، لسه هطلع عشان أشوف بتوع الطب الشرعي هيشربوا إيه، لمحت واحد لابس عفريتة بيضة شبه بتوع الحميات وبيضرب الأستاذ مينا والأستاذ عبد الرحمن بالنار. دخلت المخزن بسرعة وقفلت الباب عليا بالكارت، ولسه برجع لورا عشان أستخبى اتشنكلت في شنطتي وراسي اتخبطت في

الرف وأغمى عليا حتى بص راسي هتلاقيها ورمت. ما صحيتش غير عليكم يا بهوات وإنتو بتفتحوا المخزن.

كما توقعت، القاتل تنكر تنكرًا يسمح له بتغطية وجهه وارتداء تلك البدلة البيضاء، فلعب دور فني طب شرعي، ولكن لماذا لم يستعجب موظفو الكول سنتر من وجود شخص من الطب الشرعي عندهم، وما البلاغ الذي كان سيقدمه أشرف في القسم؟

كنت على وشك أن أطرح تلك الأسئلة على هيما، ولكن استوقفني طرق باب الغرفة، فسمحتُ للطارق بالدخول.

كان الشاب خالد يقف عند عتبة الباب ممسكًا بكاميرته وسألني همسًا:

- أصور إيديه بعد ما سحبنا العينة ولا أستنى لما تخلصوا؟

هززتُ رأسي مرحبًا به، فدخل وأغلق الباب خلفه. ولكن يبدو أن رياض لم يستحسن ذلك، فرمقني معترضًا، ثم سأل هيما:

- أومال هربت مننا ليه؟

- كنت فاكر إن القاتل هو اللي فتح الباب.

همس له الشاب خالد وهو يعدل وضعية عدسته:

- افتح كفك على الآخر ومِد إيديك قدامك.

نفذ تعليماته ورياض يستأنف استجوابه:

- بس إحنا قلنالك إننا بوليس تلات مرات وبرضو أصريت على الهرب.

لم يجبه، كان منشغلًا بمراقبة الشاب خالد وهو يميل ناحيته ليصوره، فلاحظ الشاب خالد ذلك وقال له:

- رد على وكيل النيابة.

التفت هيما إلى رياض قائلًا:

- لا مؤاخذة يا باشا يعني ما القاتل قالنا إنه من الطب الشرعي وفي النهاية خلص على الشفت كله. حقك عليا عشان جريت منكم، بس اعذرني، إنتو أول ما فتحتوا الباب أنا شميت ريحة الكولونيا بتاعت القاتل ابن الحرام وسمعت حِسه.

علَّق فادي متفذلكًا:

- دي كلها أعراض جانبية للتروما.

لا أظن أن هيما يفهم معنى كلمة «تروما» التي قالها فادي، ولكنه كان منشغلًا بمراقبة الشاب خالد وهو يصوره ويغير العدسات والفلاشات حتى انتهى وخرج بهدوء كما دخل

بهدوء من دون أن يرفع هيما عينيه من عليه، إلى أن طرقعت أصابعي نحوه حتى يستفيق ويستأنف حديثه.

- يا باشا حط نفسك مكاني ما كنتش هتخاف وتنفد بجلدك؟

- هربت عشان افتكرت القاتل لسه في الشقة ولا عشان سيجارة الحشيش اللي في جيبك؟

اللعنة على اللحظة التي قرر فيها قطز أن يطلع فادي على ملخص ما صار في غيابه.

أجاب هيما على سؤال فادي وهو ينشج قبل أن ينكد علينا ببكائه المسرحي مجددًا:

- على فكرة دي مش سيجارتي وحياة ابني...

قاطعه قطز بحدة:

- هتحلف بحياة ابنك العيان كدب يا نطع! بدل ما توفر كل قرش لعلاجه رايح تصرف على الزفت ده؟

- يا باشا يعني أنا لو وفرت تمن السيجارة دي هبقى أبو هشيمة؟ ده لولا النفسين اللي بفك بيهم عن نفسي كان زماني ارتكبت جريمة.

وجدنا نحدق إليه بتربص فأدرك غباء جملته ثم أعاد صياغتها:

- لا مؤاخذة يعني أقصد إن النفسين دول هم اللي مخليني أستحمل الشقا والقرف اللي أنا فيه.

نظر إلى قطز متأملًا سمرته وجلده المتقشر من فرط الجلوس أسفل الشمس الأفريقية، وقال متهكمًا:

- أنا لا معايا قرشين أصيِّف...

ثم ألقى نظرة على فادي وقال بالنبرة الحاقدة نفسها:

- ولا لا مؤاخذة مشترك في نادي عشان ألعب رياضة وأفرغ كبتي.

ألم أكن محقًّا حين أخبرت فادي أن ملابسه لا تناسب العمل في المباحث؟

- هو يوم شؤم من أوله يا بشوات، أنا قلت لمستر أشرف إن الليلة دي مش هتعدي على خير بعد اللي سمعناه، لكن هو اللي صمم يبلغ عن المكالمة ودانا كلنا في داهية.

سأله قطز:

- مكالمة إيه؟

إن كنت أرى أن سابق انفعالات هيما مفتعلة، ففي رأيي هذا هو الانفعال الصادق الوحيد الذي صدر منه.

بكى ولطم وجنتيه مثل الولايا وصرخ قائلًا:

- هو أشرف ما بلغش! هرب وسابنا نتقتل! آه يا أشرف يا ابن...

قاطعه فادي ببرود وقال:

- بس يا أوفر! أشرف اتقتل زيه زي باقي الشفت.

- اتقتل قبل ما يبلغ؟

- كان مبلغ في التلفون وأخدنا منه التفاصيل اللازمة، بس اتقتل قبل ما يجيلنا القسم عشان يكمل البلاغ.

- أومال الباشا مستعجب وبيسألني عن المكالمة ليه؟

- عشان أنا اللي عملت المحضر ومسجل البلاغ لكن البشوات ما يعرفوش إن...

وضعت يدي على فم فادي وجررته خارج الغرفة فتبعني قطز وهو يقول لرياض:

- عن إذنك يا رياض بيه، لحظة وراجعين.

خرجنا من الغرفة وأنا أعتب على قطز في سري، أكان من الضروري أن يلعب دور المعلم رشدان ويحضر سلحفاة المجاري هذه إلى غرفة التحقيق؟

* * *

دفعتُ فادي بعيدًا إلى الطرقة المقابلة لغرفة التحقيق،

فارتطم ظهره بالحائط وأنا أقول بصوت خفيض حرصت على ألا يصل إلى آذان رجال الطب الشرعي:

- وريني كارنيهك.

انتصبت قامته ونفرت عروق عنقه وهو يقول بنبرة محتدة:

- وإنت مين عشان أوريك كارنيهي؟

- مش عايز لَت، طلع كارنيهك ووريني سلاحك الميري!

- اتصِل باللوا رشوان وهو يقولك أنا مين، يا برو.

استدار متجاهلًا أمري الصارم، فجذبته من مرفقه قائلًا بثبات انفعالي أحسد عليه:

- طب يا برو لو ما نفذتش أمري حالًا هعتبرك منتحل شخصية ظابط، وهبعتك للقسم متكلبش.

دفع يدي عنه وقال بسخط أشعل عينيه الواسعتين:

- أنا بأمانة جِبت آخري منك وشكلي همد إيدي عليك.

- أوي، أوي يا حبيبي. اتفضل مِدها.

اقتربتُ منه إلى درجة أن تلامس طرفا حذاءينا، فعلا صدره وهبط من فرط الغضب وقال:

- يا برو صدقني هأذيك!

- سترك يا رب، دودي هيغُزني بالكرواسون!

استفزته سخريتي منه فدفعني بغِل، ولكني ثبَّت قدمَي في الأرض ولم أتزحزح.

دفع قطز كلًّا منا بيد في اتجاه معاكس للآخر وهو يصيح:

- في سِت شباب دَمهم لسه ما نشفش. بدل ما نتعاون عشان نجيب حقهم هنضرب بعض؟

تراجعتُ خطوة إلى الوراء كذلك فعل فادي، فوقف كل منا يستند إلى الحائط المقابل للآخر في الممر.

زفر قطز وهو يسأل فادي:

- إيه حكاية البلاغ اللي أخدته من تيم ليدر الكول سنتر ده؟

ظل يرمقني بتوعد وسخط وهو يروي ما صار لقطز على مضض:

- وصلني بلاغ تلفوني في القسم بيفيد إن «agent» في الكول سنتر اسمه وائل استقبل مكالمة من عميلة اسمها هند شندويلي بتشتكي من إن الدرايفر اتأخر عليها في توصيل أكل عصافيرها، وفجأة سمعها بتصرخ وفي اتنين بيتكلموا واحد فيهم نادى التاني باسم هادي. واللي اسمه هادي ده قال لهند ابقي سلميلي على سلطان الدَّغَش وقتلها.

بمجرد أن سمعت اسم سلطان الدَّغَش شعرتُ بأن برميل مياه مثلجة سُكب على قفاي.

لديَّ تاريخ لعين مع الدَّغَش، هو صاحب مزارع موالح في الإسكندرية، يجمع أطفال الشوارع واللقطاء وخريجي الإصلاحيات ويضمهم إلى كنفه ليعملوا في مجال الإتجار بالمخدرات والبلطجة.

أحد صبيان سلطان كان اسمه أبو قرن، قتل صديق طفولتنا أنا وقطز، ثم اختفى من دون أن يترك أثرًا واحدًا خلفه يمكننا من إنفاذ القانون فيه.

أنا الوحيد الذي تمكن من الوصول إلى مخبأ أبو قرن بمساعدة روح صديقنا المغدور به، وكنتُ أنتوي أن أقبض عليه وأسلمه للعدالة، ولكن انتهت بي الحال بالدفاع عن نفسي من هجومه المباغت عليَّ بمطواته القرن بأن قتلته هو ودخلت من بعدها في حالة نفسية عصيبة.

منذ اللحظة التي تلوثت فيها يداي بدماء هذا المراهق القاتل وأنا تركت قضية سلطان الدَّغَش ولم أعد أتابع صبيانه. أولًا لأن هذا النوع من الجرائم يخص جهاز مكافحة المخدرات وليس مباحث قصر النيل، وثانيًا لأنني كنتُ أخاف من نفسي وعلى نفسي، فربما إذا بدأت مطاردته قد ينفضح أمري في الداخلية ويعرفون أنني

قتلتُ شخصًا حتى وإن كان دفاعًا عن نفسي، ففي النهاية أنا طاردته حتى الإسكندرية من دون أي تنسيق مع إدارة البحث الجنائي، وواريتُ جثته في مكب نفايات وأضرمت فيه حريقًا هائلًا، أي أنهم سيعتبرونني مجرمًا مع سبق الإصرار والترصد!

بقيتُ أخاف افتضاح أمري على يد سلطان إذا اهتم بالبحث عن صبيه أبو قرن حتى سمعتُ منذ ثلاثة أيام أن الدَّغَش قُتل في سراياه هو وكل صبيانه المراهقين. وقتها فقط، انزاح همه عن صدري، ولكن يبدو أنه حقًّا «يموت الزمار وصوابعه بتلعب» فها هو مات وما زالت هناك جرائم تنفذ باسمه.

وضع قطز يده على كتفي وربت عليَّ بحنان أبوي، فالتفتُّ إليه، ووجدته ينظر إليَّ كأنه يسألني عما إذا كنت بخير.

لا أدري أهذا لأن التوتر بدا جليًّا عليَّ منذ سماع اسم الدَّغَش، أم لأنه وجدتي الوحيدان اللذان يعرفان ما فعلته بأبو قرن؟

هززتُ رأسي كأنني أنفض عن خاطري تلك الذكريات الدموية والمؤلمة، ثم سألتُ فادي وأنا أدعك عينَي:

- يعني وائل سمعهم بيقتلوها؟

- إنت شايف إيه؟

للمرة الأولى لم أنزعج من عجرفة فادي، لا أمانع أن يزعجني ويستفزني الآن، فهذا أفضل من أن يتركني غريق ذنب ارتكبته منذ ما يزيد على ثلاث سنوات.

وبخه قطز على أسلوبه الطفولي، فزفر بقلة صبر ثم استأنف حديثه متململًا:

- سمعهم بيقتلوها وبعدها القاتل خد باله إن في مكالمة شغالة فحط السماعة على ودانه وقال آلو. وائل اتوتر وداس على زرار الهولد، الهولد بيخلي المتصل يسمع أغنية بيتكرر فيها اسم الأبليكيشن والعروض والخصومات، فالقاتل فهم إنهم كانوا مسموعين طول الجريمة عشان كده التيم ليدر بتاع وائل بلغنا والمفروض كان هيجيلنا القسم ومعاه اللابتوب اللي اتسجلت عليه المكالمة بس حصل اللي حصل.

تدبرت الحكاية التي قصها علينا، ثم سألته:

- اديني سبب يخليك عارف كل ده وساكت، قبل ما أذكر كل فرد من أفراد أسرتك الكريمة بأبشع الألفاظ!

كوَّر فادي قبضتيه وهو يقول لقطز:

- شايف السفالة؟

- هو إنت لسه شُفت سفالة، ده إنت مخبي عنا دافع الجريمة!

- أنا ما خبتش حاجة. مش ذنبي إنكم أغبيا ومش عارفين تربطوا الأمور ببعض.

عرف قطز من تعبيراتي أنني على وشك أن أنعت فادي بألفاظ كفيلة بأن يرفع عليَّ قضية سب وقذف، فوضع يده على فمي قبل أن أنطق وصاح فيه:

- ما عشان نربط الأمور ببعض لازم نبقى عارفينها يا بني آدم.

- وأنا إيه اللي عرفني إنكم مش عارفين!

- ما دام إنت مش قايللنا هنعرف منين يا فادي؟ ما تخلينيش أخرج عن شعوري أنا كمان!

- أنا مبلغ الرائد صلاح بالتفاصيل وراجعت المحضر معاه على التلفون وأنا في القسم. هو بقى ما قالكمش، فده برا عني.

أنزلت يد قطز عن فمي وقلت لفادي:

- يعني صلاح يعرف؟

ابتسم إليَّ ابتسامة استفزازية وهز رأسه ببرود من دون أن يتكبد عناء الرد.

أخرجت هاتفي من جيبي. اتصلت بصلاح وضغطتُ على زر مكبر الصوت فور أن أجابني بصوت ناعس وهو يتثاءب:

- إيه يا عم عيالي؟

- إيه دافع جريمة القتل اللي بنحقق فيها، يا صلاح؟

- والله يا نحنوحة عمال أقلبها في دماغي شمال يمين مش عارف و...

قلتُ لفادي بنبرة متربصة:

- ما هو مش عارف أهو!

تأفف بنرجسية وقرب فمه نحو هاتفي وهو يقول لصلاح:

- مش أنا قلتلك قبل ما نيجي هنا إن وصلني بلاغ من واحد بيقول إنه سمع جريمة قتل على التلفون؟

- أيوه. الجريمة اللي سمعها حصلت في المعادي، ماله البلاغ؟

نظر فادي إلينا بشماتة وأسند ظهره إلى الحائط بابتسامة منتصرة وتمتم:

- بأمانة، محروق اللي يشتغل معاكم.

صحتُ في صلاح:

- هو إيه اللي ماله؟ عملت إيه في البلاغ؟

- ما أنا اتلهيت في مصيبتنا يا نحنوحة. هركز مع سِت جثث وقطة في نطاق القسم بتاعنا، ولا هركز مع واحدة اتقتلت في المعادي؟

- احلف بحياة عيالك يا صلاح إنك ما حسيتش للحظة برابط بين الجريمتين!

- إكمن الاتنين حصلوا في نفس الليلة يعني؟

- إكمن اللي بلغ عن جريمة المعادي هو التيم ليدر اللي اتقتل وأنا بقالي فوق السِّت ساعات بحاول أفهم إيه دافع الجريمة!

قال ببرود أحسده عليه:

- الصراحة ما ربطتش الجريمتين ببعض، يا نحنوحة. كنت جعان.

أغلقت الخط من دون سلام ولا كلام، بينما تمتم قطز بغيظ:

- الله يحرقك يا أخي مطرح ما إنت قاعد. هكلم أنا وليد عطية أشوف مباحث المعادي عملوا إيه في حكاية هند شندويلي دي.

رأيتُ رياض يقبل علينا بخطوات بطيئة ثقيلة حتى وقف أمامنا، يتأمل ثلاثتنا ثم سألنا بصوته الرخيم الهادئ:

- صوتكم عالي ليه؟

سألته:

- إنت سايب هيما لوحده؟

- الشاب خالد معاه. بالمناسبة، ما كانش يصح تسمحله يدخل يصور ويسمع اللي بيتقال في التحقيق.

- الشاب خالد من رجالتنا، فين المشكلة؟

- المشكلة في برفانه!

استغربنا كلامه، حتى فادي نفسه سأله في محاولة منه لاستيضاح ما يرمي إليه:

- برفانه تقريبًا لا كوست بلان. إنت عندك حساسية منه؟

أغلق رياض عينيه، كأنه هو أيضًا يحاول ألا يخرج عن شعوره من سذاجة تعليقات فادي، ثم قال جملًا متقطعةً، كأنه يحاول أن يشرح أحجية معقدة لحفنة من الأغبياء:

- مش إنت بتقول إن عندك قدرة خارقة على الحفظ يا سيادة الملازم؟

- أيوه.

- قلّنا كده ملخص مواصفات القاتل اللي هيما قالها.

- لابس بدلة بيضة زي ما قلتلكم، صوته مميز وهيما اتهيأله أنه سمعه لما فتحتوا باب المخزن، وريحة برفانه قوية.

- هيما ما جابش سيرة البرفان القوي والصوت المميز غير لما مين دخل الأوضة؟

الآن فهمتُ إلامَ يرمي هذا الأحمق المتعجرف!

تدخلت قائلًا بانفعال:

- أنا سيبتك تسرح بخيالك وتقولي صاحب الكول سنتر والأوفيس بوي، لكن مش هسمحلك تتهم حد من رجالتي.

- أنا شغلانتي تستوجب اتهام الكل. ولا هما عشان رجالتك يبقوا فوق القانون؟

ضغط قطز على مرفقي، فلاحظت أنني اقتربتُ من رياض أكثر مما ينبغي من دون أن أنتبه لحركتي من فرط الانفعال.

رجعت خطوة إلى الوراء كما وجهني قطز، ثم قال هو لوكيل النيابة:

- عندك دليل على الفرضية دي يا رياض بيه؟

انزعجت من كلام قطز، فصحتُ فيه:

- إنت هتجاريه في الهطل ده؟ الشاب خالد كان صاحب أبويا وأبوك و...

قاطعني رياض:

- ما كل قاتل له أصحاب، محدش فوق مستوى الشبهات يا سيادة الرائد.

- وما دام شاكك فيه، سايبه لوحده مع الشاهد بتاعك ليه؟ مش خايف يهدده ولا يقتله؟

- لو صوتكم ما كانش عالي، ما كنتش هضطر أسيب الشاهد بتاعي لوحده وأطلعلكم. إنت ليه متضايق من إني بشوف شغلي؟

- يعني يوم ما تشوف شغلك، تتهم راجل محترم أضمنه برقبتي بتهمة قتل جماعي عشان متبرفن؟ طب ما فادي بيه عمينا ببرفانه وقالب موقع الجريمة زريبة من ساعة ما دخل، ومش راضي يورينا كارنيهه، ولا سلاحه الميري، وزوَّر أقوال الشاهدة الوحيدة!

انتفض فادي من مكانه وصاح:

- أنا زوَّرت أقوال بياتريس؟

- تقدر تقولي ليه ما عرفتناش إنها شافت وش القاتل؟

- عشان هي قالت إنها ما شافتهوش.

- قالتلي أنا بقى إنها شافته وإنه صورة طبق الأصل منك.

صاح فادي أكثر وبدأ يسبني، فاجتمع رجال الطب الشرعي حولنا.

كنتُ سأرد سبته ولكن ضغط دمي ارتفع فجأة.

شعرتُ أن مقلتَي ثقيلتان إلى درجة أنهما قد تسقطان من أسفل جفنَي، وتتدحرجان على الأرض التي ماجت من تحتي، بينما يتقلص الكول سنتر أمامي والجدران تضغط على صدري والسقف يهبط فوق رأسي المكتظ بضجيج مؤلم وفرقعات مزعجة تدوي في طبلتَي أذنَي.

كان صوت الفرقعة عاليًا وواقعيًّا أكثر من اللازم إلى درجة أنني شعرتُ بأن هناك شيئًا يفرقع حقًّا في المكان.

اكتشفت أن ما سمعته لم يكن هلاوس صوتية من فرط الإرهاق حين رأيت قطز يمسك عن الكلام، وفادي ينتفض في مكانه، ورياض يجفل ثم يصيح:

- الفرقعة من الحمَّام!

استفقتُ من دواري وهرعتُ نحو الحمَّام، يتبعني حسني الذي يصيح:

- بالراحة يا جماعة! محدش يحرك حاجة من مكانها!

دخلتُ الحمَّام أنا وقطز فوجدنا سيجارة فادي الإلكترونية، التي نسيت أن أفصلها عن شاحنها كما طلب صلاح، تخرج شرارات مثل الشمروخ وتتقافز فوق صندوق الإسعافات الأولية من دون أن تسقط على الأرض، لأنها معلقة بسلك الشاحن المتصل بمقبس الكهرباء في الحائط بجوار صندوق الإسعافات الأولية.

صاح قطز يطلب طفاية حريق من منطقة التطهير، بينما اندفعتُ لأفصل السلك عن الكهرباء فصرخ فيَّ:

- هتتكهرب!

تعرضت لشحنة كهربائية خفيفة وأصابتني شرارة لسعت معصمي ولكني نجحت في مهمتي. فصلت السيجارة الإلكترونية عن الكهرباء وجذبتها من السلك، وألقيتها على الأرض في اللحظة نفسها التي جاء فيها إيهاب بطفاية الحريق وأخمد شراراتها الشيطانية.

بمجرد أن انطفأت ساد صمت لم يكسره سوى صوت رياض من خارج الحمَّام ينادينا من غرفة المدير بغضب.

اتجهنا إليه في حالة من الهرج والمرج برز خلالها صياحه بتعليمات شديدة وواضحة:

- اقفلوا الأبواب والشبابيك. محدش يخرج من الشقة.

وصلنا إلى غرفة المدير حيث يقف الجميع يشهق ويحوقل ويتمتم بالشهادة، فصحتُ فيهم أنا وقطز حتى يفسحوا مجالًا لندخل.

وقفنا على عتبة الغرفة، رياض على يميننا ينظر بتربص شديد إلى الشاب خالد الذي يجاوره وسماعاته متدلية حول عنقه ويده على فمه في ذهول، وفي منتصف الغرفة يقف فادي يتقيأ على الأرض على بُعد سنتيمترات من الكرسي الذي كان يجلس عليه هيما قبل أن يصاب برصاصة في موضع قلبه، وأخرى بين عينيه.

هكذا أدركت أن القاتل لم يخرج من الباب الأمامي كما تصورتُ، ولا من الباب الخلفي كما تصور العميد، ولم يهرب بسيارة جيب داكنة كما رأيتُ مع مصطفى في فيديو كاميرات المراقبة.

شك المرحوم هيما كان في محله، القاتل لا يزال بيننا!

١٠

الوردية المسائية في كول سنتر «إلقُف» قُتلت بأكملها، لأن وائل سمع أحد رجال سلطان الدَّغَش يقتل هند شندويلي، ولا أدري بعد إن كانت هند من عائلة السيد شندويلي داهية العقارات في مصر، أم أنه مجرد تشابه في الأسماء.

وضع القاتل السماعة على أذنه، سمع اسم الكول سنتر، فبحث عن مقره ووصل إليه في أقل من ساعتين، كانت هي الفترة بين توقيت بلاغ أشرف عن المكالمة، وبين اتصال بياتريس بالنجدة بعد مقتل علاء.

تظاهر القاتل بأنه من الطب الشرعي، وصل إلى الطابق الثاني، وجد أشرف يخرج من الكول سنتر ويركب المصعد، فقتله وسرق الهاتف واللابتوب.

رن الجرس، فتحت له بسنت الباب الأمامي من زر مكتبها،

قتل الجميع بترتيب سيره من الصالة وحتى المطبخ حيث يطعم علاء القطط.

القط المخلص لصاحبه صان اللقمة التي أطعمه إياها فهاجم القاتل، فقد القاتل أعصابه وقتل القط بتلك الطريقة البشعة التي وصفتها بياتريس وأكدها منظر جثة القط.

صرخت بياتريس المفجوعة من هذا الحدث الدموي، فسمعها القاتل وأدرك أنه لا يملك سوى دقائق ليهرب. دخل حمَّام الإناث، خلع البدلة البيضاء ونظف دمه موضع هجوم القط عليه، ثم نزل يضع الهواتف والحواسيب التي جمعها من الكول سنتر في السيارة الجيب ولكنه تذكر دليلًا حيويًّا، دليلًا لم يخلفه في أي موقع جريمة منذ أن احترف القتل، دمه!

اضطر أن يؤجل فراره ويعود إلى الشقة على الأغلب من سلم الخدم، أو ربما استخدم مفتاح بسنت ودخل من المدخل الرئيسي.

مسح دماءه من على أرضية المطبخ وحرق المنشفة التي استخدمها في الحوض، ثم همَّ أن يهرب مجددًا ولكن بعد فوات الأوان، العميد نادي وصل وكذلك الإسعاف والمباحث والصحافة وجميع السكان يحاصرون الشقة، فماذا كان الحل؟

الاندساس بيننا.

تمامًا كأسطورة اللص الذي تعذر عليه أن يجد مخبأً من الذين يطاردونه، فاختار آخر مكان يمكن أن يخطر على بال أي شخص، قسم الشرطة.

اندساسه بيننا كان مخاطرة عظيمة، ولكنها أتت بثمارها، فلو لم يبقَ في مسرح الجريمة لما عرف أن بسنت نجت من الموت وتمكن من إرسال شخص لقتلها في المستشفى، ولما اكتشف اختباء هيما في المخزن طيلة هذا الوقت، تركنا ننشغل بفرقعة السيجارة الإلكترونية، وتسلل هو إلى غرفة التحقيق وأردى هيما برصاصتين من فوهة مسدسه ذي كاتم الصوت.

هذا تصور أولي ينقصه الكثير من التفاصيل، ولكنه استوطن ذهني وأنا أرى فادي على بُعد خطوة من جثة هيما بينما يفحصها حسني.

تجنب حسني الدعس على قيء فادي وهذا دفعني إلى التساؤل، كيف يمكن لفادي أن يكون بهذه الحماقة!

سأعيد صياغة الجملة، هذا دفعني إلى الشك إن كان فادي حقًّا بهذه الحماقة!

فلنراجع «حماقاته».

إذا كنا سنلتزم بتفاصيل السيناريو الذي تخيلته ألا وهو أن القاتل لم يترك سوى ستة أدلة خلفه: رؤية الشاهدة الفرنسية لوجهه، دمه على ذيل القط، وصنبور حوض الحمَّام، بصمته الجزئية على مقبض باب الحمَّام، بسنت الناجية الوحيدة، وأخيرًا هيما الذي قال أمام فادي أنه ما زال يسمع صوت القاتل ويشم رائحة عطره وهو دليل اقتنع به رياض اقتناعًا تامًّا، إذن، فمن أفسد هذه الأدلة كلها؟

زيف فادي أقوال بياتريس، وأخفى حقيقة أنها رأت ملامح القاتل بوضوح.

تقيأ فادي على ذيل القط، ولوث بقعة الدم التي كانت عليه.

طمس فادي بصمة القاتل الجزئية التي تحمل مخلفات إطلاق الرصاص بالمنديل الذي جفف به يده بعد أن استخدم الحمَّام وفتح الصنبور، وجعل بقعة دم القاتل تنزلق إلى البالوعة.

بمجرد أن تولى فادي مهمة مراقبة الناجية الوحيدة من هذه المجزرة، ماتت ونحن في انتظار أن يؤكد الطبيب لصلاح إن كانت ماتت ميتة طبيعية أم أن هناك شبهة جنائية.

أما هيما، فقد لحق ببسنت حين فرقعت سيجارة فادي الإلكترونية.

هل من المنطقي أن يكون كل دليل يدين القاتل قد أتلف بالمصادفة لأن فادي غبي فحسب؟

أليس الغباء في هذه الحالة أفضل تمويهًا؟

لا بد أن انفجار السيجارة الإلكترونية كان مفتعلًا. ما حدث كان الطُّعم الذي استدرجنا به فادي إلى الحمَّام حتى يتسلل هو ويقتل هيما ثم يقف أمامنا الآن، يلهث بينما تهرب منه دموع الذعر ويتصنع تعبيرات الخزي والصدمة.

في فيلم الأنمي الذي شاهدته مرات عدة مع تالا، أراد لوبين أن يجعل من محققي اليابان أضحوكة، فأقسم أن يسرق الياقوتة الحمراء من خزانة حكومية فائقة الحراسة أمام أعينهم، فتنكر بصفة ضابط وانتحل شخصية هاري والدر، ليندمج بين عناصر الشرطة وينفذ سرقته بنجاح.

هذا ما فعله فادي الليلة، فادي ليس ضابطًا انتقل من شرطة السياحة، لقد اختلق شخصية خلفيتها متقنة التفاصيل حتى يشتتنا عن هويته الحقيقية، وسبب تواجده معنا في مسرح الجريمة.

التقت عيناي بعينَي رياض، كان يقف مثلي يحدق إلى فادي بنظرات تحليلية متأنية، فتمنيتُ من كل قلبي أنه

أخذ اتهامي له على محمل الجد وبدأ يربط الأحداث ببعضها مثلي.

قلَّب فادي نظره بيني وبين رياض وبدأ يفتعل المزيد من اللهاث والإرهاق، فتربصنا به أكثر وهو يتحرك ببطء نحو الباب والجميع منشغل بفحص الجثة بينما يصورها الشاب خالد.

حاول أن يعبر من جواري لينسل إلى الخارج ولكني تصديتُ له ودفعته بعنف نحو الحائط.

أجفل حسني واقترب قطز مني وأنا أرطم وجه فادي بالحائط وأثبته بمرفقي وهو يصيح مذعورًا:

- إنت بتعمل إيه!

نزعت سلاحه من جرابه وتفقدته، كان يحمل طبنجة آلية من طراز جلوك ١٩ وليس مسدسًا من النوع أبو ساقية.

وقف قطز خلفي يهمس إليَّ بقلق:

- غلط كده!

ناولته سلاح فادي الميري قائلًا:

- عِد الطلقات!

هممتُ أن أفتشه ولكن قطز تصدى لي وهو يقول:

- ما ينفعش تفتشه بدون أمر من النيابة.

تدخل رياض قائلًا:

- اعتبر أمر النيابة معاك.

أخيرًا، رفعت الغشاوة عن عينيه وبدأ يرى الأمور على حقيقتها.

وقف رياض في منتصف الغرفة قائلًا:

- كله هيتفتش واللي هياخد الموضوع بشكل شخصي هعتبره شريك في الجريمة.

تفاءلت بما قاله، وشعرتُ بأننا لن نخرج من هذه الشقة إلا وأصفادي تكبل يدَي القاتل، ولكن قطز والشاب خالد أبديا عدم تحمسهما لموقفي أنا ورياض.

لم أبالِ بنظراتهما التي تستنكر الوضع، بدأت أفتش فادي تفتيشًا دقيقًا بينما أردف رياض موجهًا حديثه إلى حسني:

- خد مسحة من إيد كل اللي في الشقة. قدامك ساعة تكون عرفت مين اللي على إيده مخلفات إطلاق رصاص.

أطاعه حسني وترك الجثة، وذهب ليحضر أدوات اختبار مخلفات الرصاص.

أنهيتُ تفتيش فادي من دون أن أجد معه كاتمًا للصوت

ولا خزينة رصاص زائدة ولا محفظة أبحث فيها عن كارنيه الداخلية، بينما فرَّغ قطز مخزن سلاح طبنجة فادي وعد طلقاته ثم قال:

- تلاتاشر طلقة.

مخزن طبنجة الجلوك ١٩ يكفي لخمس عشرة رصاصة، في الطبيعي لا نملأ المخزن لآخره تجنبًا لإتلاف نوابضه أو الضغط الزائد عليه، ولكن في حالة فادي لي كامل الحق أن أشك في أنه استخدم هاتين الرصاصتين لقتل هيما.

سألته:

- الرصاصتين التانيين فين؟

- أقولك وما تزعلش؟!

سحبته من مرفقه خارج الغرفة بمباركة من رياض، وتحركنا إلى غرفة اجتماعات أخرى بعيدة عن رجال الطب الشرعي.

ألقيتُ فادي نحو أقرب كرسي فزمجر وصاح وظل يهددنا ولكنني أمرته بصرامة:

- اقلع جزمتك!

ظل يحدق إليَّ منتظرًا تفسيرًا ولكني لم أنبس ببنت شفة، فنظر إلى قطز باستجداء ولكن قطز لم يعِنه.

وقف يصيح:

- أنا هوديكم إنتو التلاتة ورا الشمس. أنا هخلي بابا يـ...

فاجأنا رياض بتطوعه لإخراس فادي بأن صفعه بقوة مباغتة دوى صدى طرقعتها في الغرفة.

تجمد فادي في مكانه واضعًا يده على موضع الصفعة، فقال رياض بهدوء يخالف عنف كفه التي هوت على خد فادي:

- اقلع جزمتك!

حين أدرك فادي ألا مفر من تنفيذ أمري، مال يفك رباط حذائه الرياضي على مضض.

إذا صحت نظرية أن القط خربش القاتل، فلا بد أنه خربش ساقه أو قدمه، فهذا أقصى ما قد يطوله من القاتل الواقف خلف علاء. وبما أن فادي يرتدي بالفعل شورتًا، فأنا لا أرى أي خربشات على ساقيه، لهذا لا يبقى لي سوى فحص قدميه.

خلع الحذاء فرأيتُ أنه يرتدي جوربين أسودين مرسومًا عليهما وجه الجوكر.

يا له من قاتل متصابٍ!

أمرته:

- اقلع الشراب!

خلع جوربيه ثم رفع قدميه عن الأرض ليصدرهما نحوي ويقول:

- تحب تصورها يا تارانتينو ولا كده كفاية؟

تجاهلت سخريته السينمائية المعقدة وانشغلت بالتحديق في قدميه.

لم أجد شيئًا مريبًا في قدميه سوى أنهما صغيرتان جدًّا مقارنة بطول قامته، وأن هناك تحدبًا غريبًا في الإصبع الكبيرة لقدمه وأنه على الأغلب يقوم بعمل باديكير دوري.

ربما تسرعتُ في مسألة خدش القط لساق القاتل، ولكن هذا لا يهدم نظريتي كلها.

تركتهم جميعًا وخرجت من الغرفة يراقصني الجن الأزرق والشياطين الحمر وكل الكائنات الخبيثة التي تظهر للمرء في ساعة غضبه.

تخطيت الطرقة وقطز يتبعني قائلًا:

- إنت ووكيل النيابة زودتوها.

- فين الرصاصتين الناقصين؟

- مش في جثة هيما يا نوح عشان الأوضة ما فيهاش فوارغ رصاص. ده إنت بنفسك اللي استبعدت إن سلاح الجريمة يبقى طبنجة بسبب كده!

أكره الغباء الذي يصيبني حين أغضب.

- ماشي. بس فادي كان في الأوضة لما هيما شم ريحة برفان القاتل، وقال إنه لسه سامع صوته.

- هيما شم ريحة برفان القاتل أول ما مصطفى فتح باب الأوضة، وفادي ما كانش موجود وقتها. مفيش دليل يدينه. مفيش معاه كاتم صوت و...

- ومعهوش كارنيه الداخلية، يعني ممكن يكون منتحل شخصية ظابط.

- وبالنسبة لسلاحه الميري؟

- سرقه.

- إنت كده بتقيِّف شوية أدلة ظرفية على مقاسه. ما تخليش الضغط والتوتر يودوك في داهية. فادي ده أغبى من إنه يبقى شرير. مفيش شرير ألدغ، يا نوح.

كنت على وشك أن أهين شرف نظريته الطفولية الخالية من المنطق، ولكن ارتطم بكتفي أحد رجال الطب الشرعي ببدلته البيضاء ووجهه الملثم بالكمامة الطبية وغطاء رأسه الذي يمتد من عنقه إلى جبينه.

ماذا لو أن القاتل لم ينتحل شخصية ضابط كما فعل لوبين مع كونان؟

ماذا لو أنه يسير بيننا الآن كأحد رجال الطب الشرعي، ألم يكن هذا التنكر الأول الذي ظهر به لأبو وردة وتمكن من خلاله من الدخول إلى الشقة وقتل كل من فيها؟

ذهبت إلى الغرفة التي اتخذها فريق الطب الشرعي منطقة للتطهير وقطز يتبعني ويترجاني للتمسك بالحكمة والتأني.

وجدتُ الشاب خالد يشحن الكاميرا الديجيتال، بينما يجهز حسني أدوات اختبار مخلفات الرصاص.

سألت حسني:

- في دم على مخالب القط؟

- أيوه. بعتنا جثته للمعمل الجنائي مع باقي الجثث، وهنعمل التحليلات اللازمة.

- خد عينة دم من كل اللي في الشقة وطابقه مع الدم اللي على المخالب. ومحتاج دلوقتي كشف بأسماء وبطايق كل فرد في فريقك.

- هتراجع البطايق وإحنا خلاص بنقفل الشغل وماشيين؟

- ما تصعبش الأمور أكتر ما هي صعبة، يا حسني! وكيل النيابة لسه قايلك إن القاتل بينا.

- بينكم! لو عايزين تشكوا في ظباطكم إنتو أحرار لكن رجالتي خط أحمر!

- هو إيه اللي رجالتي ورجالتك. هو أي جَر شكل للبيع!

أخذنا نتناطح كالثيران الثائرة حتى تدخل الشاب خالد وقطز ليفرقانا.

دفع قطز حسني إلى أبعد زاوية في الغرفة، بينما جذبني الشاب خالد من مرفقي وهو يقول بهدوء لا يجبرك على التوقف عن الصياح فحسب، بل يجبرك أيضًا على خفض صوت الأفكار التي تصرخ في رأسك.

- روَّقوا يا شباب، كلنا في نفس المركب. تعالى يا نوح، إنت محتاج تشم هوا!

* * *

انزوينا إلى الشرفة الملحقة بغرفة استراحة الموظفين التي تطل على سيارة آسيا المغطاة.

خفتت ظلمة الليل مع أذان الفجر المنبعث من مكبر صوت مصلى عمر بن الخطاب الملاصق للعمارة.

رددت خلف المؤذن، ثم أخذت نفسًا عميقًا ملأت به صدري برائحة تلك الساعة المباركة.

داعب أنفي أريج الزهور والورد المتراصة أصائصها الفخارية الملونة حول سور الشرفة.

حسبي الله ونعم الوكيل فيكِ يا نادية، لو لم تحاصريني بأسئلتك المزعجة ما تطوعتُ للانضمام إلى صلاح للتحقيق في تلك القضية اللعينة!

بمجرد أن انتهى الأذان، سألني الشاب خالد بنبرة تجعلني أشك في أنه يدخن الحشيش حتى يصل إلى هذا القدر من هدوء الأعصاب:

- متنشن ليه؟

- بقولك القاتل معانا في الشقة!

- وبعدين؟

- ولا قبلين، يدوبك ممكن يطسنا رصاصة وإحنا بنتكلم دلوقتي.

داعب بتلات الورد البلدي في الأصيص الذي يسند كوعه بجواره، ثم سألني بمنتهى العدمية:

- هنموت يعني؟

- ده لو معندكش مانع.

- أنا فعلًا معنديش مانع، يا مان. كده كده هنموت، هتفرق معاك النهارده ولا كمان خمسين سنة؟

- يا سيدي أنا خايف أموت دلوقتي.

- ما هو عشان كده البشر بيموتوا أسرع من الحيوانات. هات إنسان وغزالة واضربهم بالرصاص، هتلاقي الغزالة فضلت تجري ييجي خمسين متر وبعدها هتموت من النزيف لأنها مش فاهمة إن الرصاصة اللي صابتها قاتلة، إنما البني آدم بمجرد ما يشوف حد رافع عليه سلاح، بيموت من الخوف.

- ما الخوف اللي مش عاجبك ده هو اللي بيخلي الإنسان يحمي نفسه واللي بيحبهم.

- كلام فارغ. ما أنا قدامك أهو كنت بخاف من الموت، قدرت أحمي أسرتي منه؟

صمت للحظة استغرق فيها النظر إلى السماء التي بدأت تخلع ثيابها الداكنة تدريجيًا، لتكشف لنا عن ضي فجر يوم جديد.

قال وهو يلصق أنفه بالورد:

- مفيش حقيقة مطلقة في الكون غير إن كلنا هنموت. ده الخوف المشترك الوحيد في وجدان البشرية مع إن الواحد لو فكر شوية هيلاقي إن الموت له فوايد كتيرة طحن.

توقف عن استنشاق الورد ورأى تعبيرات الاستعجاب على وجهي، فأضاف موضحًا:

- الميت بيخلص من دوشة الدنيا وهمها، والأحياء بيورثوه. مش بس بيورثوا ممتلكاته، فكر كده في الناس اللي بتتبرع بأعضائها بعد الموت، بيفيدوا المرضى إزاي. الموت فرصة لطيفة جدًّا للعطاء، يا نوح.

وددتُ أن أتأمل أكثر في فلسفة الشاب خالد الفريدة من نوعها عن الموت والعطاء، ولكننا سمعنا صريخًا من داخل الكول سنتر بتر هذه اللحظة الملهمة:

- حريقة! حريقة!

هرعت إلى الداخل لأُفاجَأ بأن رائحة كحول حادة عبأت الشقة، يصاحبها صوت يشبه تكسر الأغصان الجافة بينما غزت أنفي رائحة أدخنة تتمدد في الهواء وأحاطت بي حرارة شديدة بسطت سلطانها في الأفق.

تتبعتُ منظر الدخان وأنا أضغط على كمامتي بكفي حتى لا أختنق من رائحة الدخان اللاذعة إلى أن وصلتُ إلى مصدر الحريق.

على الرغم من شدة حرارة الحريق المتصاعد، فإن ما رأيته جعل طبقة ثقيلة من العرق البارد تغلف جسدي الذي انتصبت كل شعرة فيه.

في هذه اللحظة، أدركتُ أنني خسرتُ هذه القضية ومعها سمعتي كضابط مباحث متمكن.

مصدر الحريق كان غرفة التطهير، الغرفة التي حُرزت وحُفظت فيها الأدلة كافة التي قد تعيننا على إيجاد القاتل.

ازدادت النيران فتراجعت خطوة لأحمي وجهي، ثم شعرت بشيء صلب أسفل كعبي. رفعت حذائي فرأيت أنني دعست قداحة ألوانها تتدرج بين البنفسجي والأخضر ومرسومًا عليها الجوكر وهارلي كوين.

١١

لقد أفسدتُ الكثير من الأمور.

ليس على الصعيد المهني فقط، بل في حياتي عامةً، ولكن ما حدث الليلة هو الخطأ الأكبر والأشرس في حياتي القصيرة.

عجزنا عن إخماد النيران بمطفأة الحريق الوحيدة في الشقة التي استهلكنا أغلبها في حريق السيجارة الإلكترونية، فاستدعى قطز المطافئ بينما قام حسني والشاب خالد بحمل جثة هيما والنزول بها على السلالم مع باقي السكان الفارين من خطر اللهب الأزرق الساطع الذي ابتلع ربع الشقة.

نظم قطز ورياض إخلاء العمارة من سكانها، فكان هذا العمل المنسق الوحيد الذي أديناه بشكل صحيح في هذه الليلة الشؤم.

في أثناء إخلاء العمارة، ركضتُ إلى غرفة الاجتماعات حيث تركت فادي ولكن كما توقعت، هرب.

هذا ثاني تمويه ينجح في تنفيذه.

بعد الكثير من لوم النفس وجلد الذات، انتهت بي الحال أن أقف في الشارع منهكًا، أدخن بشراهة سيجارة تلو الأخرى.

وبينما يعتصرني الخزي وأنا أتابع رجال المطافئ يخمدون الحريق، وقف قطز إلى جواري يتحدث في الهاتف مع آسيا بنبرة مبهجة محبة للحياة:

- حاضر يا حياتي.. أجيب كام رغيف؟ عندنا جبنة رومي نسيحها؟ قشطة.. استني أتأكد.

وكزني بكوعه وسألني:

- على ميعادنا يوم الحد، صح؟

لم أجد إجابة مناسبة، العالم حرفيًّا يحترق وقطز يفكر في ساندويتشات الجبن الرومي السائحة ودعوة الغداء.

حين طال صمتي قال لآسيا:

- على ميعادنا. كملي نوم وأنا لما آجي هصحيكي. باي يا حياتي.

أنهى المكالمة وهو يقول:

- وصيتها تقر مشلك وش البشاميل وتكتر الجبنة. صحيح، دليلة ممنوعة من أكل معين؟

ألقيت السيجارة على الأرض ودهستها بنعلي وذهبت إلى ضابط الحماية المدنية وقطز يتبعني قائلًا:

- لو نفسك في حاجة غير البشاميل قولي، حياتي أكلها كله زي الشهد.

* * *

أنهوا إخماد الحريق الذي لم تنتج عنه أي إصابات سوى جرح كبريائي.

أخبرنا حسني وضابط الحماية المدنية أنه وفقًا لشكل اللهب ورائحته وتوهجه، فالحريق على الأغلب نتج عن اشتعال الكحول الإيثيلي الذي يتوفر بكثرة في منطقة التطهير. الأهم من ذلك، أن الحريق مفتعل، أي أن الكحول سُكِبَ عن عمد في أرجاء الغرفة وفوق مظروفات الأدلة الجنائية، ثم اشتعلت به النيران التي أثق أن شرارتها خرجت من قداحة فادي البنفسجية.

غادر رجال المطافئ وكذلك سيارة المعمل الجنائي لنقل جثة هيما إلى المشرحة، بينما بقي حسني في سيارته الخاصة يتصل بفنيي الحرائق التابعين للطب الشرعي

ليفحصوا الشقة بعد أن احترق جناحها الأيسر كله، وبالطبع لم يغفل عن أن يشكونا لمديريه.

أيمكن أن ألومه؟

لقد فشلت فشلًا سأحتاج إلى أن أحل مئات القضايا بعبقرية منقطعة النظير حتى أتمكن من تخطيه.

أبلغتُ جميع العناصر الأمنية عبر اللاسلكي بمواصفات فادي على أنه مشتبه فيه فار من العدالة، ولكني في الواقع فقدت أمل العثور عليه، لا بد أنه سيغير شكله، ثيابه، وسيارته وسيهرب بالبراعة نفسها التي هرب بها من مسرح الجريمة على مرأى ومسمع منا جميعًا.

كان لقطز رأي آخر أعلنه لي مع بداية سقوط أشعة الشمس على الشارع، بينما نترجل حول العمارة لنفض تجمهر المدنيين وندعوهم إلى العودة إلى بيوتهم.

- هيلحق يعمل الحريقة دي إزاي؟

- زي ما لحق يقتل هيما.

- تاني هتقولي قتل هيما!

- لو هو بريء وأنا اللي دماغي تعبانة، هرب ليه لما الحريقة قامت؟

- فعلًا ما كانش يصح يهرب، كان المفروض يقدم نفسه قربان للنار.

- إنت شكلك رايق وعايز تهزر.

- يا عم بلاش قفش. إنت عملتله كارت إرهاب ووكيل النيابة لسعه على وشه، أكيد خاف وهرب ولا راح يعمل شكوى توديكم في داهية.

استمر نقاشنا حتى تأكدنا من انصراف المدنيين كافة إلى أعمالهم وعودتهم إلى شققهم، وتوقفنا أمام سيارة آسيا.

فاحت رائحة الفول والفلافل والعيش البلدي المنبعثة من المطاعم المنتشرة حول العمارة.

أشعلت آخر سيجارة في علبتي وكدت أستند بظهري إلى سيارة آسيا، فوضع قطز يده على كتفي ليبعدني عنها قائلًا:

- ضهرك والعروسة.

- خد عروستك وروَّح يا قطز، متشكرين!

- هتروَّحني على لحم بطني بعد ما خدت غرضك مني يا قاسي؟

- خَلِّي «حياتك» تفطرك.

- ورحمة أبوك نضرب شقتين بالزيت الحار وشوية

طعمية من عند أبو تريكة، وبعدها أقعد معاك نمخمخ في القضية على رواقة.

زفرتُ دخاني ثم قلتُ مستسلمًا:

- كتر الكمون والليمون على ما أشوف الشاب خالد لو هيفطر معانا.

كدت أن أصعد الرصيف لأدخل العمارة وأتركه يذهب لشراء الفطور، ولكن اجتاحتني فجأة مشاعر الامتنان والاعتزاز بقطز.

لا أتخيل حالتي إذا لم يكن معي في هذه اللحظة يمازحني ويساندني ويحرص على أن آكل بعد الفوضى والعبث والفشل الذي تعرضت له.

ربتُّ على كتفه ثم عانقته عناقًا مقتضبًا وأنا أضربه على ظهره وأقول:

- إنت ضهري يالا.

- مالكش غيري يا كلب!

قالها ضاحكًا ثم تركني وحيدًا لا رفقة لي غير زقزقة الطيور وحفيف أوراق الأشجار المتمايلة مع نسمات البكور الباردة.

كان توقيتًا مثاليًّا للتخلي عن إحباطي وسوداويتي، وإخراج

هاتفي من جيبي وتجاهل إشعارات عشرات المكالمات الفائتة من أمي، وفتح الواتس آب لأرسل رسالة صوتية لدليلتي:

- طبعًا هتشمتي فيا عشان كلمتك الأول وخسرت الرهان، بس عادي، أنا بتقبل الخسارة بروح رياضية. حبيت إنك لما تصحي تلاقي المسدج دي مستنياكي. أنا هدفع النهارده مقدم القاعة اللي كنتي مختاراها. فرحنا هيبقى يوم ١٩/ ٩/ ٢٠١٩، تاريخ مميز زيك، يلا زغرطي بقى.. أنا بحبك أوي يا دليلة. عايزك تفضلي عارفة ده.

أرسلت الرسالة بينما يغمرني شعور عجيب بالشوق، كأنني على وشك أن أسافر سفرة طويلة سأغيب فيها عنها.

تخطيت شعوري غير المبرر هذا بأن تخيلتُ اللحظة التي ستستيقظ فيها لتجد رسالتي فتتصل بي وتخبرني كم هي متحمسة لمستقبلنا معًا، ولكن أحلام يقظتي الوردية تلاشت بمجرد أن شممت رائحة فازلين نفاذة وسمعتُ خطوات تقترب مني.

نظرت إلى يساري لأجد إله السخافة، دكتور عاطف زفت الهمشري يقترب مني.

زفرتُ وتلفتُّ حولي، لا يوجد أي شخص يمكنني أن

أولي له مهمة التواصل معه، فاضطررتُ إلى أن أبقى في مكاني أنتظر أن أسمع ما أتى ليقوله.

وقف أمامي يحدق إلى الشقة وهو يضرب كفًّا بكف، ثم تكلم فخرجت منه رائحة طغت على رائحة فازلين شعره، رائحة الخمر.

- أنا هطلع أصور الشقة عشان شركة التأمين.

لم يكن يترنح أو يتلعثم، أي أنه لم يكن مخمورًا بما يكفي لأصرفه أو أمنع صعوده لشقته.

رفع يده يشير إلى العمارة ويقول:

- وكيل النيابة رياض السعيد هو اللي اتصل بيا ومنتظرني فوق.

حين حرك يده انتبهت إلى أن هناك كدمات على براجمه، كدمات تشبه تلك التي يصاب بها الملاكمون إثر ضرب أخصامهم.

هل ثمل وضرب أمي مجددًا؟

أعلم أنه حتى وإن ضربها فلن تشكُ لي، وإن شكت، فلن تتركني أرد لها حقها بعد ما حدث في المرة السابقة، ولكني سأطمئن عليها على أي حال.

مددتُ يدي في جيبي لأخرج هاتفي وأتصل بها ولكن استوقفني صوت يناديني من فوق. استدرت ونظرت إلى أعلى، فوجدتُ الشاب خالد يقف في شرفة شقة الكول سنتر.

قلت له:

- هعمل مكالمة وطالعلك، تفطر؟

- سيب اللي في إيدك واطلعلي بسرعة. أنا قفشت القاتل!

* * *

وصلتُ إلى الطابق الأول وقبل أن أستأنف الصعود، لمحتُ قطًّا أسود يشبه قط شارعنا كأنه توأمه.

ركض القط من خلفي وصعد السلم بسرعة وهو يموء بعنف أربك توازني، فارتطمت مقدمة حذائي بطرف السلم وسقطت على ركبتَي أمام باب عيادة دكتور الأمراض الباطنية.

وقف القط عند عتبة العيادة يلهو بشيء ما على الأرض ويخربش بابها الخشبي.

شعرت برغبة شديدة في الصراخ بأعلى صوت، ولكن كالعادة، كبتُّ رغبتي في الانهيار فكانت النتيجة أن بقيتُ

راكعًا على ركبتَي بلا حركة أو صوت، تجولت في ذهني أكثر الأفكار تشاؤمًا وأنا أحدق إلى لافتة العيادة بنظرات تائهة.

اندفع طوفان من التشاؤم في عقلي، يجرف كل خلية نشطة فيه إلا خلية، كانت الناجية الوحيدة من الغرق. خلية جهبذية متفردة بيقظتها تقرأ تفاصيل لافتة عيادة طبيب الأمراض الباطنية بصوت عالٍ:

الدكتور جمال أبو الدهب
استشاري الأمراض الباطنية والجهاز الهضمي والكبد والحميات - عضو الجمعية الأمريكية للجهاز الهضمي والكبد والكشف بجهاز السونار
مواعيد عمل العيادة: من السبت إلى الخميس، من ٤م إلى ٩م
ت: ٢٨٨٤٨٧٠٠

تنبهت حواسي للدليل القاطع الماثل أمامي، فوضعت إرهاقي وقلة ثقتي في نفسي جانبًا واستفقتُ من توتري واضطرابي، وأدركتُ أن تلك اللافتة العتيقة حملت حل القضية منذ البداية، ولكني ابتلعت طعم القاتل بكامل إرادتي وتركته يعمي بصيرتي عن حقيقة أنه هو المجرم الحقيقي.

كيف تمكن الذئب من خداع ليلى ذات الرداء الأحمر؟

أول ما فعله هو التنكر في هيئة جدتها، في حالتي تنكر القاتل في هيئة زميل مخضرم بشوش.

تلاعب الذئب بليلى ليكتسب ثقتها، فقلد صوت جدتها وتصنع اللطف. كذلك فعل القاتل، تظاهر بأنه تلميذ أبي وصديقه الذي أكل في بيته ومن يد زوجته.

حدسي كان يناجيني منذ أن وقعت عيناي عليه للوهلة الأولى أنه رجل مثير للشبهات، ولكن كلامه المعسول وابتسامته الواسعة وحكايته الدرامية ونظريته عن الموت جعلوا عقلي ينقلب على حدسي وينحاز إلى أكاذيبه، فعقولنا مبرمجة على أن توالي تلقائيًّا الأشخاص الذين يحبون ما نحب ويكرهون ما نكره. إنه تفكير بدائي، نجد فيه طريقًا مختصرًا لتكوين وجهة نظر جوفاء من دون الحاجة إلى الفحص والتمحيص وكل هذا المجهود الذهني المنطقي.

اختتم الذئب خداعه بأن شتت ليلى عن هدفها، سألها عن رحلتها وجعلها تضيع الوقت في الثرثرة، ولم يتقاعس القاتل عن فعل ذلك، لقد استخدم غباءنا وتوترنا وقلة ثقتنا في بعضنا ليؤلبنا ضد بعض ويبعدنا عن الشك فيه هو شخصيًّا.

لهذا، لم أنتبه إلى أن اليوم هو يوم الجمعة بينما مواعيد عيادة الدكتور موضحة على لافتته (من السبت إلى الخميس) أي أن حجة سرعة استجابته لموقع الجريمة كلها مبنية على باطل.

لهذا لم أتوجس من أنه أجرى مكالمة كلما جدَّ جديد في موقع الجريمة، لهذا لم أجزم بأنه ودعني ورحل تقريبًا في التوقيت نفسه الذي تحركت فيه السيارة الجيب المشبوهة.

كانت هناك مائة علامة تشي بأنه القاتل الحقيقي، أولها أن رائحة عطره قوية إلى درجة أنها ظلت عالقة في الجو فشمها هيما وظن أن القاتل ما زال في المكان.

ثاني تلك العلامات الواضحة هو أنه يعرج، ليس لأنه يعاني من مشكلة في اليوريك أسيد كما زعم، بل لأن القط خربشه هو والتعرق والحمى ورعشة أصابعه لم تكن أعراض رجل مرهق ومريض فقط، بل رجل خربشه قط شارع وربما سبب له عدوى ما، أو ربما كان فعلًا مريضًا بالسرطان كما قال، فلا يمكن تزييف أن يسعل دمًا، ولكنه بالتأكيد كان يود أن يترك مسرح الجريمة في أسرع وقت لا ليلحق بموعد طبيبه، بل لينجو بفعلته بعد أن نجح في تلويث مسرح الجريمة.

قطرات الدماء التي وجدناها على الحوض في الحمَّام

كان سببها على الأغلب أنه سعل، فتناثرت قطرات الدم من فمه من دون أن ينتبه.

هو الذي فتح باب سلم الخدم وترك القطط تدخل إلى مسرح الجريمة حتى تنشر فيه الفوضى وتلوثه، ثم تظاهر بأنه يحاول أن يخلصنا منها.

تظاهر أمامي بأنه سيرحل، فودعني ثم قاد السيارة ربما ليخفي أجهزة اللابتوب والهواتف التي سرقها من الضحايا، أو ربما ذهب ليقتل بسنت بنفسه في المستشفى، ثم عاد يرتدي بدلته الواقية البيضاء واندس بين رجال الطب الشرعي من دون أن يدركه أي شخصٍ منا.

تلاعب بالسيجارة الإلكترونية لتنفجر في الحمَّام ونلتفت إليها أو ربما السيجارة انفجرت فعلًا من فرط شحنها فكانت مصادفة قدرية في صالحه، المهم أنه قتل هيما وبقي بيننا حتى عرف أنني بدأتُ أشك في رجال الطب الشرعي، فحرق منطقة التطهير بكل ما فيها من أدلة ضده ثم هرب.

الآن فقط أدركت الحقيقة بوضوح، فادي لم يسئ ترجمة أقوال بياتريس لنا حين قال إنها لم ترَ وجه القاتل، العميد نادي هو الذي اختلق تلك الأقوال، فأنا صحيح أجهل الفرنسية ولكني لم أسمع بياتريس تقول «جيرار ديبارديو»

الذي له أنف مميز كأنف فادي وكان أساس بداية شكي فيه.

فادي لم يعبث بمسرح الجريمة عن عمد، هو كما نعته قطز، مجرد غبي، بل هو أغبى من الطبنجة التي أعلقها في حزامي، ولكن هذا لا يمنع أنه سلاح قد يفيد مستخدمه إذا أجاد توجيهه، فلم يفوِّت القاتل فرصة أن يشتتنا بتصرفات فادي الغبية ويجعل منه المتهم الأول.

القاتل هو العميد نادي الناجي، إن كان هذا اسمه الحقيقي، وأجزم بأنني لو اتصلت الآن بالنجدة لأسأل عن رقم بلاغ بياتريس والمستجيب له من النجدة سيخبرونني أنهم لم يرسلوا أي شخص من النجدة، لأن العمارة تقع على مسافة خمس دقائق من قسم قصر النيل، أي من الطبيعي أن يكون المستجيب الأول والأقرب هو فرد من المباحث وليست النجدة، وطبعًا صلاح لم يتفقد كارنيه العميد ولم يراجع معه أي بيانات، ربما وثق فيه بسذاجة، ربما لم يتوقع أنه قد يجد في موقع الجريمة شخصًا ينتحل شخصية ضابط، أو ربما خجل من أن يطلب الكارنيه من ضابط يعلوه رتبة.

لا لوم عليه، ليس وكأنني كنت أكثر حذرًا منه في التعامل مع العميد الذي عانقته عناق مطارات لأودعه وأنا أدعو

له بالشفاء والسلامة، لقد وثقتُ في اللعين ابن الحرام إلى درجة أنني اشتريتُ له كعكًا من سميراميس!

كتبت اسم القاتل في دفتري، ثم انتبهت إلى أن القط توقف عن خربشة باب العيادة وأتى يقف أمامي يحك جسده اللين في فخذي.

نظرتُ إليه، وتذكرتُ كلام قطز عن القطط، يبدو أن الأجداد كانوا على حق، فقد قادني القط إلى الحل تمامًا كما ستقود مخالب جثة القط الأسود إلى إثبات نظريتي حول العميد المزيف.

ربتُّ على رأس القط ونهضتُ عن السلم وأنا أدس دفتري وقلمي في جيبي، ثم صعدتُ إلى الطابق الثاني لأرى إن كان الشاب خالد معه دليل إضافي غير الذي وجدته.



دخلتُ الشقة فكان أول من رأيته هو زوج أمي في صحبة رياض يصور بهاتفه منطقة التطهير التي احترقت، ويتبادل بعض المعلومات حول تأمين الشقة وتفاصيل تأجيرها، إلى آخره.

كنتُ سأُقبل على رياض لأشاركه اكتشافي كي نبدأ إجراءات مطاردة نادي، ولكنه حين رآني عاد يرمقني

بنظراته المتعالية، ويستخدم نبرته الآمرة الجافة وهو يسألني:

- بتعمل إيه عندك؟

- بشوف شغلي.

- شغلك؟ أنا سامعك بتسأل الشاب خالد عن الفطار. أنا خاطرت بمركزي وعُمت على عومك وصدقت إن فادي منتحل شخصية ظابط وسمحتلك تفتشه وإنت سيبته يولع في غرفة الأدلة ويهرب عشان بتشرب سيجارة مع الشاب خالد، فبدل ما تخلي كل عناصرك تطارده دلوقتي بتلم أوردر الفطار؟

ارتسمت ابتسامة شامتة على شفتَي الدكتور فازلين فأدار محرك غضبي.

دسستُ يدَي في جيبَي ورفعت رأسي بعنجهية لا مثيل لها وقلتُ لرياض:

- أنا ما باخدش منك تعليمات يا بيه. ياريت تعرف حدود سلطتك وتلتزم بها.

وليتُ ظهري لهما من دون استئذان، ولأثبت لهما عدم اكتراثي بتهديدات رياض بدأت أدندن مقطعي المفضل من أغنية «حلاوة روح» لحكيم بأقل قدر ممكن من المبالاة

بالوضع الكارثي الذي تورطنا فيه وأنا أشعر بنظرات رياض الحادة تخترق قفاي حتى دخلت شرفة غرفة استراحة الموظفين حيث ينتظرني الشاب خالد.

كان يستند إلى السور غارقًا في التركيز في توصيل محوِّل ما ملحق به كارت ميموري إلى هاتفه، بينما تتدلى على كتفه كاميرته الديجيتال بحزامها الجلدي.

سمع دندنتي:

- بابا يا بابا يا باباااا.

قال مبتسمًا:

- كان فين الروقان ده من بدري؟

- ده مش روقان، ده كيد. قلت للتنح اللي برا ده إنك لقيت دليل ضد القاتل ولا لسه؟

- لسه، حبيت أقولك إنت الأول عشان تاخد لقطة روشة.

على الرغم من تقديري الشديد لمبادرة الشاب خالد، فإنني وددتُ أن أعرف إن كان قد سبقني في حل الجريمة، فسألته بعد أن شكرته وربت على كتفه بامتنان:

- احكيلي بقى قفشت مين؟

- هعرف لما أتفرج على الفيديو ده، بس سوكيت الموبايل

شكله عملها ومش راضي يقرأ الـ«converter» بكارت الميموري.

- ده كارت الكاميرا الديجيتال؟

- آه. لما قلت إن القاتل متنكر بلبس الطب الشرعي وسطنا، فكرت إن لو نظريتك صح فأكيد اللي عمل كده هيحاول يلعب في الأدلة المتحرزة. شغلت الكاميرا عشان تسجل أي تصرف غريب في منطقة التطهير.

- والكاميرا نجت إزاي من الحريق؟

- عيب بقى يا مان، أنا معداتي كلها «fireproof».

ابتسمتُ للشاب خالد، وكنتُ سأقبل رأسه على تلك الفكرة العبقرية، ولكن رياض دخل الشرفة ووقف يسأله بنبرة لم تعجبني:

- خلصت تصوير؟

- آه. هسلم الهارد خلال ساعة بالكتير.

- معاك عربية؟

- معايا.

- توصلني السيدة زينب؟

وافق الشاب خالد بابتسامة واسعة، فانزعجت من بجاحة

رياض لطلبه خدمة من الرجل الذي كان يتهمه بجريمة قتل جماعي منذ بضع ساعات.

قلت لرياض وأنا أربت على كتف الشاب خالد:

- عرفت إن الشاب خالد لقى دليل دامغ ضد القاتل؟

سألني رياض كأنه لا يصدق أننا أنجزنا شيئًا:

- لقى دليل دامغ ضد فادي؟

أجابه الشاب خالد وهو يعيد إدخال وإخراج المحوِّل أكثر من مرة في هاتفه:

- أنا بحاول أشغل الكارت على الموبايل عشان أشوف الفيديو وأعرف مين القاتل بس...

أعلنتُ لهما بفخر:

- القاتل اللي هيظهرلك في الفيديو هو نادي الناجي.

سألني رياض:

- عميد النجدة؟!

- اللي عمل نفسه عميد النجدة. ده قاتل مأجور مرقع دخل علينا الدخلة دي عشان ما لحقش يهرب وأهو بالمرة يلوث موقع الجريمة ويدمر كل الأدلة.

وقف يربع ذراعيه من دون تعليق، عيناه تتحركان يمينًا ويسارًا فتوقعت أنه يفكر فيما قلت ويربط الأحداث ببعضها مثلما فعلت.

كنت سأفسر له الأمور بصورة أوضح، ولكني شعرتُ بهاتفي يهتز هزة مقتضبة، فأخرجته من جيبي لأجد إشعارًا بأن شحن البطارية على وشك النفاد.

كنتُ سأعيده إلى جيبي ولكنه رن باسم اللواء رشوان، رئيس مباحث قسم قصر النيل وأكبر الداعمين لي ولقطز في جهاز المباحث الجنائية.

قلتُ لرياض والشاب خالد:

- هاخد المكالمة دي وأشرحلك.

انزويت بنفسي عند الجزء الأيمن من سور الشرفة وأجبتُ على الهاتف وأنا أتابع حديث رياض والشاب خالد وهو يسأله عن حكاية كارت الميموري، ولماذا يعد دليلًا مهمًّا ضد القاتل.

- صباح الخير يا سعادة اللوا أ...

أتاني صوته غاضبًا غضبًا لم أسمعه يحدث به أحدًا من قبل غير صلاح كلما أخفق إخفاقًا ذريعًا:

- صباح الزفت على دماغك! إيه اللي إنت هببته مع الملازم فادي جاد ده؟

- خليني أشرح لـ...

- تشرح إيه! إزاي تسمح لنفسك يا بيه بإهانة ضابط وتفتيشه، وسحب سلاحه منه، وتعميم مواصفاته على إنه متهم في جريمة قتل بدون ما تاخد الموافقات اللازمة؟

ارتفع صوت إشارات اللاسلكي، فخلعته من حزامي وضغطت على زر كتم الصوت وأبقيت الجهاز في يدي وأنا أبرر موقفي قائلًا:

- يا حضرة اللوا هو رفض يورينا كارنيه الداخلية، فافتكرته منتحل شخصية ظابط و...

- ابني أنا هينتحل شخصية ظابط؟!

اللعنة! فادي الذي أجبرته على خلع حذائه وكنتُ على وشك أن أطحنه ضربًا هو ابن اللواء رشوان برسوم الذي أقتدي به؟ هذا الغبي، هو ابن هذا النابغة!

لماذا لم يخبرنا أن ابنه سينتقل للعمل معنا؟ لا لوم عليه، فهذه خلفة تجلب العار ويجب فعلًا إبقاؤها سرًّا.

- يا سيادة اللوا أنا ما كنتش أعرف إنه ابن حضرتك. هو قال إن اسمه فادي جاد و...

- وهو لازم يقولك اسمه بالكامل ولا يعرفك إنه ابن فلان ولا علان عشان تحترمه؟ من إمتى ودي طريقة مقبولة للتعامل مع زمايلك يا نوح بيه! إنت وقطز متحولين للتحقيق و...

- قطز مالوش دعوة، أي تصرف صدر مني تجاه ابن حضرتك فأنا اللي مسؤول عنه مسؤولية كاملة.

- ما تعمليش فيها شهم يا نوح. كل واحد كان في موقع الجريمة دي متحول للتحقيق، إنتو عملتوا كوارث تلبسكم البيجاما!

- أنا فاهم إننا غلطنا يا سيادة اللوا بس حضرتك لو إدتني فرصة هـ...

- يا خسارة ثقتي فيكم! بقالكم عشر ساعات في موقع الجريمة، ولا واحد فيكم رفع سماعة التلفون على سامر المنيري؟

- يا فندم ما زميله رياض السعيد موجود، دي مشكلة تنسيق داخلية ما بينهم، إحنا مالنا.

- تنسيق إيه يا نوح، إنتو ما أخطرتوش النيابة بجريمة القتل من أساسه و...

انقطع صوته فجأة، فظننته أغلق الخط من فرط الغضب، ولكن حين نظرتُ إلى شاشة الهاتف أدركت أن شحنه نفد فانغلق من تلقاء نفسه.

تجمدت في مكاني، أقبض على هاتفي المغلق بيد وعلى جهاز اللاسلكي باليد الأخرى، وعيناي على رياض السعيد وأنا أفكر في تفصيلة واحدة سَهَت عني تمامًا، نمط القاتل.

بعض الجثث قُتلت برصاصة واحدة في الرأس، والبعض الآخر برصاصة في القلب وأخرى في المسافة بين العينين.

موقع الجريمة يحمل نمطين متكررين ببساطة لأن منفذ الجريمة قاتلان وليس قاتلًا واحدًا!

هذا يفسر كيف تمكن القاتل من إنهاء حياة ستة أفراد بسرعة إلى درجة أنهم لم يجدوا وقتًا ليقاوموه. هذا يفسر كيف تمكن أحدهم من جمع الأجهزة وإخفائها في السيارة الجيب، بينما الثاني ينظف دمه في المطبخ. هذا يدحض نظريتي حول أن نادي تظاهر بأنه رحل ثم عاد مجددًا متخفيًا، لقد رحل وترك لنا شريكه في الجريمة بعد أن لعبا عليَّ لعبة «الشرطي الصالح والشرطي الطالح».

شريكه الذي حقق مع هيما، فسمع هيما صوته وقال إن القاتل ما زال بيننا، شريكه الذي حاول إلصاق رائحة عطر

نادي النفاذة برائحة الشاب خالد. شريكه الذي تحمس كثيرًا لإلصاق التهمة بفادي، شريكه الذي انتشل قداحة فادي من يد صلاح حين طلب منه أن يستدعي له حارس العقار ولم يعِدها له، بل حرق بها منطقة التطهير ثم ألقاها عند المدخل حتى نشك في فادي. شريكه الذي سيظهر وجهه بالتأكيد في الفيديو الذي سجله الشاب خالد.

شريكه الذي يعاملنا منذ أن وطأ موقع هذه الجريمة كما عامل هيما، يكرر جملنا ويقلد حركة جسدنا حتى نسهب في الشرح والكلام أمامه، فيجمع أكبر قدر من المعلومات والتفاصيل منا حتى يتلاعب بنا ويجعلنا نشك تارة في هيما وصاحب الكول سنتر، وتارة نشك في الشاب خالد وتارة أخرى نطارد فادي.

شريكه الذي يقف أمامي الآن، ينظر إلى الشاب خالد نظرات حادة كرصاصات محترفة تعرف كيف تخترق القلب والرأس بدقة وهو يقول بنبرة حازمة:

- أنا هتحفَّظ على كارت الميموري ده.

- لسه هحتاج أحرزه لما أفتح الفيديو وأراجعه.

- بعد المهزلة اللي حصلت دي مش هقدر أئتمنكم على حاجة.

مد يده لينتشل كارت الميموري من بين أصابع الشاب خالد، ولكن الأخير أحكم قبضته على الكارت قائلًا بإصرار من دون أن تحتد نبرته أو يرتفع صوته:

- تسمح توريني كارنيه النيابة عشان أسجل بياناتك قبل ما تفحص الدليل؟

- أوريك كارنيه النيابة؟

وقفت إلى جوار الشاب خالد وأنا أقول:

- مظبوط يا رياض، وريه الكارنيه عشان يعرف يشوف شغله.

لم أود أن أجعل الأمور أكثر تعقيدًا، فإذا وشيت له عن شكي فيه ربما يفر مني أو يستخدم سلاحه، مما سيشكل خطرًا كبيرًا لأن الشاب خالد لا يملك سلاحًا كما أن...

اللعنة!

زوج أمي ما زال في الشقة، سأعرض حياة مدني للخطر.

زفر رياض وقال:

- لو المسألة متوقفة على الكارنيه، ماشي.

ترك كارت الميموري في يد الشاب خالد، ثم دس يده في جيب سترته الصيفية الداخلي بمنتهى الأريحية، لم ألحظ أي تغير في تعبيراته يدل على أنه متوتر أو في مأزق.

التفت الشاب خالد إليَّ وقال من دون أن يفهم مدى حساسية اللحظة:

- ما تجيب موبايلك إنت أجرب أوصله بالـ«converter» و...

قاطع جملته أزيز مكتوم.

فاحت رائحة البارود في الهواء وشعرتُ بقطرات سائل ساخن ولزج تتطاير على وجهي وثيابي، بينما أطيح برأس الشاب خالد فجأة إلى أقصى اليسار.

ساد في عقلي صمت مرعب، وشعرتُ بأمعائي تتقلص وبقلبي يقفز حتى حلقي، بل يتخطى حلقي ويصل إلى فمي فخرستُ كأنني إن نطقت بكلمة سأسحقه بين فكي.

بقيت أحدق بالشاب خالد عاجزًا عن استدراك ما حدث للتو. راقبت الدماء تسيل من رأسه فوق أذنه اليمنى ببضعة سنتيمترات، وأخذ ضي عينيه المسالمتين يخفت تدريجيًّا.

فقط في هذه اللحظة أدركت أنه أصيب برصاصة غادرة كانت تذكرته لملاقاة الموت.

لم يُخرِج رياض منتحل هوية وكيل النيابة كارنيهًا، بل أخرج «مسدس أبو ساقية» ملحقًا بماسورته كاتمًا للصوت انطلقت منه رصاصة مكتومة أصابت رأس زميلي.

كما الغزال الذي حدثني عنه منذ بضع ساعات، لم يدرك الشاب خالد أنه مات، أو ربما أدرك الموت ولكنه لم يقاومه، بل استقبله استقبالًا هادئًا مسالمًا فظل واقفًا على قدميه أمامي لثوانٍ ألقيتُ فيها هاتفي من يدي ومددتها لأنتشل سلاحي من جرابه، ولكن بمجرد أن لمستُ كعب مسدسي، كان الشاب خالد قد سقط نحوي.

لو لم يسقط عليَّ، لما اضطررت إلى التراجع خطوة وانحنيتُ وأنا أسنده، ولما نجوت من موت محتوم، فبمجرد أن أطلق رياض رصاصته على رأس الشاب خالد، أطلق أخرى نحوي، ولكن تحركي من مكاني جعل الرصاصة تستقر في صدري ناحية اليسار حيث المنطقة التي تبقعت بعصير التوت، بدلًا من أن تخترق قلبي.

ارتطم ظهري بسور الشرفة وسقطتُ بجوار أصيص ورد بلدي استنشقه الشاب خالد قبل أن يصبح جثة هامدة في طريقه لملاقاة أسرته في العالم الآخر.

انتقلت يدي تلقائيًّا من كعب مسدسي المعلق في جرابه إلى موضع الرصاصة لأضغط عليها، فخرج مني أنين مرتعش انحبست من بعده أنفاسي داخل صدري.

أقبل رياض عليَّ وألصق فوهة مسدسه بين عينَي.

شعرت برعد الموت يقعقع في أحشائي ويضرب عظامي بكهرباء مؤلمة، فغطاني العرق البارد وسالت دمائي حتى خصري وفرت مني دموع لا أعلم إن كانت دموع رثاء الشاب خالد المغدور به، أم دموع خوفي على حياتي، أم دموع تخيل أن هذا ما شعر به أبي في لحظاته الأخيرة قبل أن يستشهد برصاصة غادرة في الرأس والعنق وهو نائم بين ذراعَي أمي.

رفعتُ سبابتي اليمنى ونطقت الشهادة: ثم أغمضت عينَي مستسلمًا لقدري.

ضغط على الزناد.

لم أسمع سوى تكة زناد فارغة ومن بعدها الصمت!

لقد نفدت رصاصاته ويجب عليه الآن إعادة تعبئة مخزن السلاح إن كان يصر على إنهاء حياتي.

فتحت عينَي واستغللتُ هذه اللحظة في أن ضغطتُ على زر الإرسال في جهاز اللاسلكي الذي ما زال في يدي اليسري وصرختُ:

- القاتل في شقة سيف الدين، أقرع وأسمر وطوله مية وتمانين سنـ..

ضرب وجهي بكعب مسدسه، فكسر أنفي وانفجرت الدماء منه وأعتقد أنه شق شفتي.

انتشل مني اللاسلكي وألقاه بعيدًا عن متناولي، ووضع مسدسه في جيبه وهو يظن أنني فقدت قوتي كلها، ولكني استنهضتُ شجاعتي، فقد عشتُ رجلًا لا يهاب القصاص لغيره، فكيف أقبل بالموت في صمت كصرصور دهسته قدم جائرة من دون بعض المقاومة؟

سحبت أصيص الورد الذي يجاور كفي المتعلقة بالسور، وألقيته نحوه بغل فأصبت وجهه.

نزف أنفه فضغط عليه ثم زمجر ككلب مسعور وانقض قابضًا على عنقي من ياقة قميصي بيسراه بينما ينهال عليَّ بيمناه بلكمات سريعة مباغتة جعلتني أعجز حتى عن الصراخ بصوت مسموع عسى أن يأتي أحدهم لنجدتي.

ترنح رأسي وتقافزت أمامي نقط ذهبية تشبه ومضات النور شوشت رؤيتي وإدراكي لمحيطي، بينما شلت البرودة أطرافي، ونهش الوهن مفاصلي، فأدركتُ أنني سأفقد وعيي عما قريب.

أنا ميت لا محالة.

ولكن إن كنتُ سأقتل فسأفعل ما فعله القط الأسود الذي ساوى شريك رياض جمجمته بالأرض، سأقاتله قتال من

يعرف أن لا مفر من موته، وسأجمع أكبر قدر ممكن من حمضه النووي على جثتي حتى يتمكن قطز من الإمساك به.

قاومت وهني ورغبتي الشديدة في الاستسلام لفقدان الوعي، وانقضضت على رياض أخدش وجهه بأشرس ما يمكن حتى تتجمع أنسجة جلده أسفل أظفاري.

نزف خده وعنقه ولكنه لم يتأثر بالقدر الذي تصورته، بل ركلني في موضع الرصاصة بعنف فصرخت أخيرًا صرخة مدوية وأنا أشعر بمذاق الدم في فمي، وحرقة الدموع في عينَي.

أغمضت عينَي ألمًا فسالت دموعي الساخنة وحين فتحتهما وجدت زوج أمي يهرول نحونا.

الأحمق سيعرض نفسه للقتل!

حاولت أن أشير إليه برأسي كي يرحل ويفر بنفسه من دون أن ينتبه رياض لوجوده، ولكنه واصل الاقتراب منا.

وقف خلف رياض ووضع يده على كتفه بوداعة مريبة وقال:

- كفاية يا زعفران!

- لازم أخلص عليه يا ريس، ده عرف إن هادي هو القاتل وصاحبه صورني وأنا بحرق الـ...

- زعفران! إنت اتجننت؟!

- اتجننت عشان عايز أقتل اللي كشفنا يا ريس؟

- اتجننت عشان بتقولي يا ريس مش يا دكتور!

هادي وزعفران، اسما القاتلين الحقيقيين، وزوج أمي ليس مجرد قاتل مثلهما، يبدو أنه رئيسهما. أهكذا عرف المدعو هادي بعض التفاصيل عن أبي وأمي؟ لأن الدكتور فازلين هو مديره؟

قال زعفران وهو يزيد إحكام قبضته على عنقي وأنا أحاول دفعه بضعف شديد:

- لا مؤاخذة يا دكتور! إيه العمل؟ ده بعت إشارة والحكومة زمانها داخلة علينا.

انحنى عاطف عليَّ وقال وهو يخنقني برائحة أنفاسه المشبعة بالكحول النتن:

- لو نقلناك دلوقتي على المستشفى ولا قدر الله افترضنا إنك عشت، هتختار المسدس ولا الوردة؟

نزع الوردة البلاستيكية الحمراء عن عروة سترته السوداء وقدمها إليَّ بطريقة سينمائية مبتذلة.

لم أفهم سؤاله، أو فقداني للدم وضربي المتكرر أفقداني

الاستيعاب، وقد قرأ ذلك على وجهي، فاقترب مني أكثر مخففًا قبضة زعفران عن عنقي وأعاد صياغة سؤاله:

- هتكون ذكي ومطيع وتعمل نفسك ما شُفتش حاجة، ولا هتعملي فيها شهيد العدالة؟

نظر إليَّ ينتظر ردي بينما زعفران يقلب نظره يمينًا ويسارًا نحو الشارع الخالي.

لم أترك عاطف ينتظر مطولًا، كانت إجابتي بصقة على وجهه الدميم، فتناثرت دمائي على أنفه وخديه ونظارته الطبية.

استقبل بصقتي عليه بتعبيرات جامدة.

فرد ظهره وهو يعيد الوردة اللعينة إلى سترته، ثم خلع نظارته المستديرة وقال لزعفران وهو يخرج منديلًا حريريًّا من جيب سترته لينظف عدستيه:

- حضرة الظابط اختار المسدس. نفِّذ طلبه يا زعفران!

مدَّ زعفران يده نحو حزامي وسحب سلاحي من جرابه من دون مقاومة تذكر مني، فاستوقفه عاطف يقول:

- من غير كاتم للصوت؟! رصاصة واحدة وهتلاقي السكان كلهم حوالين العمارة.

- الرصاص اللي معايا خلص.

- يبقى خلي الناس تتجمع عند مدخل واحد عشان نلحق نخرج من المدخل التاني.

- أعملها إزاي دي يا دكتور؟

أعاد عاطف ارتداء نظارته بعد أن أتم تنظيفها ووقف عند سور الشرفة يتأمل شارع حسن مراد ثم قال:

- ارميه!

أخذ عاطف سلاحي وحمل كاميرا الشاب خالد عن كتفه وأخذ كارت الميموري من بين أصابعه الميتة.

حملني زعفران من عند الخصر ورفعني عن الأرض.

أمسكت بالسور بكل ما بقي فيَّ من قوة حتى انخلع لي ظفران من لحمهما وأنا أصارع للتشبث، بينما يجذبني زعفران من تلابيبي ويسدد لي لكمات خسيسة متكررة في موضع الرصاصة.

تمكن مني الألم والإنهاك، ولم أعد قادرًا على الاستبسال، ربما كان الشاب خالد على حق، الخوف من الموت عبث لا طائل منه.

تركتُ السور فتمكن غريمي أخيرًا من دفعي من فوقه.

وهكذا في لحظة، حلقت في الهواء كمن يسبح في الماء على ظهره، لا أرض أقف عليها، لا جدار أستند إليه، لا سور أتشبث به، ولا يد تمتد لتنتشلني.

أنا أهوي ببطء وأرى وجه الدكتور فازلين يلوِّح لي بابتسامة سيكوباتية خبيثة من الشرفة.

رفضتُ أن يكون وجه قاتلي هو آخر ما أراه في الدنيا، فاتبعت نصيحة دليلة، نظرت إلى السماء.

السحب بيضاء هشة كغزل البنات الذي تحبه دليلة، تنتشر في سماء البكورة التي تمتد في الأفق بلون أزرق فاتح تطلي به أظفار أصابعها السمراء.

تلك الأصابع التي لن تملأ الفراغات بين أصابع كفي مرة أخرى.

بينما تلعب الجاذبية الأرضية دورها والمسافة بيني وبين السماء تزداد، عرضت كل خلية في جسدي الذكريات التي حملتها في جعبتها منذ أن كنتُ نطفة في رحم أمي وحتى اللحظة التي قتلني فيها زوجها.

ارتطمت مؤخرتي أخيرًا بالسيارة الوحيدة المصطفة أسفل الشرفة، فانبعج سطحها وتهشم زجاجها.

ارتددتُ إلى أعلى إثر سقوطي المفاجئ، ثم هويتُ للمرة

الأخيرة، فاستقر جسدي فوق السيارة، ليست أي سيارة، سيارة آسيا!

هكذا كانت تتمة حياتي، بصدري رصاصة، وجسدي ينزف من مواضع عدة، عظامي تكسرت، وتحت أظفاري حمض نووي يخص قاتلي، وفي جيبي دفتر سجلتُ فيه نصف حل الجريمة، وفكرة أخيرة تراودني قبل أن يسوَّد كل شيء وتصمت كل الأصوات: بم سيشعر قطز حين يركض نحو الجموع المتجمهرة حول جثتي فيكتشف أن سبب هذا التجمهر هو موتي وخراب سيارة زوجته، فيدرك أنه خسر صديق عمره وثمن إصلاح السيارة في اللحظة نفسها!

حسنًا، إليكم قراري، بمجرد أن أتحول إلى روح تجذبها رائحة الليمون وتطوف الأرض بحرية لأربعين يومًا، سأزور قطز في منامه وسأعتذر منه لأن جثتي دمرت سيارة آسيا، أو سيارة «حياته» كما يحب أن يناديها.

شكر وعرفان

أحمد مرتضى

د. أسامة عبد الرؤوف الشاذلي

د. بريتني ميكارتي

شيرين مجدي

محمد رحمي

آلاء أحمد الليثي

سمر سعيد

كاري ميريل

رايات وودوارد

ويتني لاستر

شارون ميليك

رضا محمد

عن الكاتبة

وُلدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة ليسيه الحرية في المعادي، ثم في كلية الألسن جامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية. حازت عدة جوائز أدبية من سفارتَي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتركِّز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدرت لها عدة روايات، من أهمها: «سلسلة تحقيقات نوح الألفي»، و«جاز وروك»، و«صديقي السيكوباتي»، و«دليل جدتي لقتل الأوغاد» (القائمة الطويلة لجائزة كتارا الأدبية)، و«قنبلة للاستخدام الشخصي».

للتواصل مع الكاتبة

Facebook: www.facebook.com/MirnaElMahdee

x: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

TikTok: @mirnaelmahdy1

Goodreads: ميرنا المهدي

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك

للتواصل مباشرة مع الكاتبة:

